مظاهر البادية

فى

شعر عبيد بن الأبرص

دكتور

حسن أبو المجد محمد حسن

مدرس الأدب والنقد

فى كلية اللغة العربية بجرجا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمــة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبــعـــد

فموضوع هذا البحث "مظاهر البادية فى شعر عبيد بن الأبرص ".

وقد دفعتنى لدراسة هذا الموضوع أسباب عدة منها :

أولاً : **تضارب الآراء حول صحة الشعر المنسوب إلى عبيد ، ودراسة شعره من خلال ارتباطه بالبيئة تكشف عن مدى صحة هذا الشعر .**

ثانياً : **ذكر بعض الدارسين أن الشاعر الجاهلى لم يتفاعل مع مظاهر الطبيعة ، بل وقف عند الحدود الخارجية لها ، فنقلها نقلا حرفياً** (١) **، وهذا أمر لا يمكن أن يؤخذ على عمومه ، فسيكشف هذا البحث أن كثيراً من الشعر الجاهلى صدر عن تفاعل عميق بين الشاعر ومظاهر البيئة من حوله .**

ثالثاً : **إن الأدب – مهما قيل فيه – عمل فنى تتآزر فى إنتاجه عوامل مختلفة ، والبيئة الطبيعية أحد هذه العوامل ؛ فأردت أن أبين ما لمظاهر البيئة البدوية فى شعر عبيد بن الأبرص من حضور على مستوى الشكل**

---

(١) على سبيل المثال : إيليا الحاوى فى كتابه : (فن الوصف وتطوره فى الشعر العربى) فى مواضع متفرقة من هذا الكتاب ، والدكتور / عمر عبد الرسول فى مقدمته لديوان دريد بن الصمة ص ٢٠ – ط دار المعارف ١٩٨٥م .

والموضوع.

وقد جاء هذا البحث بعد هذه المقدمة ، فى تمهيد ، وفصلين ، وخاتمة.

أما التمهيد فيشمل على مبحثين :

المبحث الأول **: الشعر الجاهلى وارتباطه بالبادية .**

المبحث الثانى **: أضواء على حياة عبيد بن الأبرص وشعره .**

وأما الفصل الأول فهو عن :مظاهر البادية فى الموضوع والمضمون .

وقدمت لهذا الفصل بمدخل عن أثر البيئة فى العمل الشعرى .

وقد جاء هذا الفصل فى أربعة مباحث :

المبحث الأول **: الأطلال فى شعر عبيد .**

المبحث الثانى **: الصحراء وما يتصل بها فى شعر عبيد .**

المبحث الثالث **: الناقة فى شعر عبيد .**

المبحث الرابع **: الخيل فى شعر عبيد .**

وأما الفصل الثانى فهو :مظاهر البادية فى التعبير والتصوير ، وقد جاء فى مبحثين :

المبحث الأول **: مظاهر البادية فى الألفاظ والأساليب .**

المبحث الثانى **: مظاهر البادية فى التصوير .**

وأردفت هذا الفصل بتعقيب دفعت فيه شبه المشككين فى شعر عبيد ، وبينت ما لعبيد وما عليه فى تناوله لمظاهر البادية .

ثم الخاتمة : **وفيها خلاصة موجزة للبحث ، وأهم نتائجه .**

هذا والله ولى التوفيق ،،،

الباحث

حسن أبو المجد

محمد حسن

مدرس فى قسم الأدب والنقد

المبحث الأول
الشعر الجاهلى وارتباطه بالبادية

كانت حياة العرب فى العصر الجاهلى تأخذ – فى الغالب – طابع البداوة ، ذلك أن الحل والترحال كان ديدن هؤلاء العرب فى صحرائهم الواسعة التى " قلما يجودها الغيث ، وتوافيها العيون ؛ فهى لا تصلح للزروع الدورية ، ولا تلائم الحياة الحضرية " (١) حتى أولئك الذين عاشوا حياة الاستقرار فى القرى العربية ، وفى ظلال الممالك القائمة وقتئذٍ مثل مملكة سبأ ، ومملكة الحيرة ، ومملكة الغساسنة - كانوا يحنون إلى حياة البادية ؛ لما فيها من عدم التكلف ، ومن مساوقتها لفطرتهم ، ولعل فى هذا ما يفسر لنا روح البداوة التى اتسم بها شعر هذا العصر ، كما يفسر لنا أيضا سر تشابه هذا الشعر فى موضوعاته وفى بنائه الفني.

والذي يتتبع حياة الشعراء الجاهليين يجد أن كثيراً من هؤلاء الشعراء قد شكلت هذه البداوة حياتهم ، وتعانقت مع مشاعرهم ، ومنحتهم حرية فى التعبير والتصوير لا تقل عن حريتهم فى حياتهم وحركتهم؛وغالبية هؤلاء الشعراء لم يعرفوا الاستقرار فى مكان معين ، فمنهم من عاش ردحاً من عمره فى بادية قومه ، ثم انتقل إلى إحدى الحواضر العربية وأقام فيها ؛ فظل متعلقا بحياته السابقة ، معبراً عنها فى شعره وفكره ، ومنهم من كانت معيشته فى

---

(١) تاريخ الأدب العربى ص ١٢ – ط الثامنة والعشرون ١٩٧٨م .
والبادية : اسم للأرض التى لا حاضرة لها ، ومؤنث البادى وفضاء واسع فيه المراعى والماء . تهذيب اللغة ١٤ / ٢٠١ ، والمعجم الوسيط ١ / ٤٤ – ٤٥ .

البادية لكنه كثيراً ما يختلف إلى تلك الحواضر من أجل التجارة ، أو الوفادة على الملوك ، أو غير ذلك، وهؤلاء طبعت أشعارهم بطابع البداوة أيضاً ، ولا غرو ؛ فإن هذه البوادى قد ترعرعوا فيها فى طفولتهم وشبابهم ، تنفسوا هواءها ، وتمتعوا بجوها الهادئ ، وطعامها القليل الهانئ ؛ فلابد أن تكون لها أصداؤها فى أشعارهم ، كما كانت لها أصداؤها فى حياتهم .

وبيئة البادية محدودة الموارد ، ليس فيها من وسائل العيش سوى ما عندهم من حيوان وقليل من الزروع ، فمعاش البدوى يقوم على رعى الأغنام والأنعام ، ومن لحومها وألبانها شبعه وريه ، ومن أصوافها وأوبارها يغزل لباسه وخيمته ، وقد يعتمد فى طعامه على التمر وحده ، أو مخلوطاً بالدقيق ، فإذا اجتمع التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، هكذا كان عيش البدوي بسيطا مقصوراً على ما هو ضروري لحفظ الحياة ، وهو عيش مشوب بالضنك والكفاح العنيف ضد الطبيعة ومخاطر الصحراء ؛ لذا كان الفقر بينهم أكثر شمولاً لا يكاد يفلت منه إلا سادة القبائل ...وإذا كانت حياة البدو فى الصحراء تقوم أساساً على تتبع مساقط الغيث ، وانتجاع الكلأ والماء ، فقد اقتضت ظروف بيئتهم الطبيعية أن يكون لحلهم وترحالهم مواسم معينة على مدار السنة ، وتبعا لمواقع الغيث ومعاشيب الأرض[١].

ومن معالم البيئة البدوية حيواناتها المعروفة ، وطيورها، ووحوشها ،

---

(١) أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ص ٢١-٢٣ – د/ صلاح الدين الهادى طبع دار الثقافة العربية ١٩٨٩م (بتصرف) .

وجبالها ، وأوديتها ، ورسومها ، وأطلالها ، وكل هذه المعالم وغيرها تبدو حاضرة فى مادة الشعر الجاهلى ، كما تظهر ملامحها أيضا فى تشكيل البناء الشعري من حيث الألفاظ ، والمعاني ، والصور الفنية.

وأثر هذه البيئة البدوية يتجلي للقارئ والدارس للشعر الجاهلى بوضوح ، فكثيراً ما تفاعل الشعراء مع هذه المظاهر ، وعبروا عنها ، وانطلقوا فى تناولهم لها من انعكاس هذه المظاهر على نفسياتهم ، فعزفوا على قيثارتها أعذب الألحان.

واعتقد أن كثيراً من الأحكام النقدية التى أطلقت على الشعر الجاهلى ينقصها الاستقراء التام لهذا الشعر ، ومن هذه الأحكام التى شاعت زعم بعض الباحثين أن الشاعر الجاهلى لم يتعمق فى مظاهر الطبيعة ، أو لم يتفاعل [١] معها ، بل نقلها نقلا حرفيا – على حد قول الدكتور /عمر عبد الرسول – وهو يتحدث عن فن الوصف فى الشعر الجاهلى ، ويري أنه جاء فى معظمه : " وصفا تقريريا عماده الحواس يقف عند الحدود الخارجية للمشاهد ، فى محاولة لتجسيدها ونقلها حرفيا دون أن تنتقل هذه المشاهد من حسه وحدقته إلى نفسه وتتلون بوجدانه ، وأن القليل من هذه الصور تولاها الجاهلى بوجدانه وأعمل فيها خياله من وراء حسه " [٢] ، فمثل هذه الأحكام يحتاج إلى استقراء تام لكل دواوين الشعر الجاهلى ؛ ومن هنا تبدو ضرورة الدراسة المتأنية والعميقة

---

(١) فن الوصف وتطوره فى الشعر العربى – إيليا الحاوى فى مواضع متفرقة من هذا الكتاب – ط الثانية – دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٧م .

(٢) راجع : مقدمة ديوان بن الضمة ص ٢٠- د/ عمر عبد الرسول – ط دار المعارف المصرية ١٩٨٥م .

للشعر الجاهلى للكشف عن مواطن الإبداع فيه ،وحضور شخصية الشاعر فى هذا الشعر، ولتكون النصوص الشعرية وحدها هي القول الفصل فى تلك الأحكام .

وشاعرنا عبيد بن الأبرص أحد الشعراء الذين ارتبطوا بالبادية قلباً وقالباً – وإن ارتحل عنها فى بعض الأوقات إلى الحضر - من أجل التجارة وغيرها فوصف بعض المشاهد الحضرية [١] ، لكنه ظل مرتبطا ببداديته فجاء شعره صورة : " للبيئة الجاهلية وحياة العرب الجاهليين ، بما فى شعر هذه الحياة من روح البداوة وتقاليدها وعاداتها ، وبما فى شعر هذه الحقبة من الرسوم الدارسة ، والوقوف على أطلال الديار ، ومناجاة الربع ، ووصف الظاعن ، وعناية بوصف الناقة ، وحمر الوحش " [٢] ، وغير ذلك من مظاهر البيئة البدوية التى ارتسمت فى مخيلة أبنائها حتى وإن رحلوا عنها .

لقد كانت الصحراء بالنسبة لهؤلاء الجاهليين بيئتهم الطبيعية ، فلم ينفكوا يتجولون فيها ، أو يترددون إليها طلبا للرزق ، متنازعين بقاءهم ، لا يجهل أحد صعوبة اجتياز الصحراء خاصة فى مفازاتها الموحشة المخيفة ، حتى غدا ارتيادها وجهاً من وجوه البطولة والفروسية ، ولقد تكرس وصفها فى سنة الشعر المدحى ، حيث جعل الشعراء يستعظمون صعوبة ولوجها ، ووحشة ارتيادها ، مظهرين بذلك شدة العقبات التى تجشموها فى سبيل

---

(١) تبين ذلك من خلال وصفه للسفينة كما أشار إلى ذلك - د/ فوزى محمد أمين فى كتابه (شعر بشر بن أبى خازم الأسدى – رؤية تاريخية وفنية) ص ٧٠ – ط منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٨م .

(٢) انظر : شرح القصائد العشر للإمام الخطيب أبى زكريا يحيى بن على التبريزى ص ٣١٤ – وما بعدها – ضبطه وشرحه عبد السلام الحوفى – ط ثانية ١٩٨٧م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

الممدوح [١] .

واتخذ كثير من أهل البادية صيد بعض الحيوانات بابا من أبواب الرزق، يتربصون بالفرائس قريبا من موارد المياه ، ولذا كثر فى شعرهم وصف الصيد ، والحديث عن المعارك التى كانت تقوم بين كلابهم وبينه -وهذا أيضا من مظاهر ارتباطهم بالبادية ، كما كان من مظاهر ارتباطهم بالبادية أيضا حديثهم الفياض عن الخيول ، فقد كانت الخيل من أعز مقتنياتهم ؛ ولذا حظيت منهم بالعناية الأوفى ؛ إذ كانت شديدة الاتصال بحياتهم فى الحرب ومواقف النجدة والقتال ، كذلك كان من نعمة الله عليهم فى تلك البيئة أن وهبهم الإبل ، التى كانت أكبر عون لهم على احتمال هذه الحياة الشاقة ، فعليها كانوا يجوبون الصحراء ، وهي أكثر الحيوان قدرة على تحمل مشاق الصحراء ، وصبراً على الجوع والعطش ، وقد ألف البدوى الإبل وألفته ، وطالت صحبته لها فى رحلاته فأخذ يحدوها ويبثها أشجانه ، وعرف شعراؤهم لها قدرها فأرسلوا القوافي فى التغني بصفاتها وخصالها حتى لا يكاد يخلو شعر واحد منهم من ذكرها [٢] .

وفيما سبق أصدق دليل على قوة ارتباط الشاعر الجاهلى ببيئته ، فكما كان للبيئة الصحراوية البدوية تأثيرها فى الحياة العربية ، فى أخلاقهم ، وعادتهم ، وعقليتهم كان لها تأثيرها فى نتاجهم الشعري ، وجملة القول : إن

---

(١) راجع : فن الوصف وتطوره فى الشعر العربى ص ٢٤ – إيليا الحاوى ط – الثانية – دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٧م .

(٢) أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ص ٢٤-٢٦ (بتصرف) .

الصحراء بفنائها الرحب الفسيح ، وشمسها الساطعة ، وهوائها النقي المتجدد ، وأخطارها المتربصة قد صهرت البدو ، وكونتهم تكوينا يؤهلهم لتحمل المشاق التى فرضتها عليهم طبيعة أرضهم ومعاشهم ، كذلك غرست فيهم مجموعة من الخصال الكريمة ، اقتضتها ظروف الحياة فيها ، حرصوا عليها ، وتغنوا بها فى أشعارهم [١] .

ولو ذهبنا نتقصى ما طبعته البادية فى الشعر الجاهلى من تأثير لطال الحديث وحسبنا ما ستكشف عنه الدراسة فى شعر عبيد بن الأبرص ومدى تأثره بالبادية ، وكيف لونت تفكيره وخياله وطريقة تصويره لهذه المظاهر البدوية ؟

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨ (بتصرف) .

المبحث الثانى

أضواء على حياة عبيد بن الأبرص وشعره

حياته :

عبيد بن الأبرص من جملة الشعراء الذين لم يكتب القدماء عنهم شيئا يذكر ، فكثير مما تناقلته كتب الأدب عن عبيد وحياته وشعره لا يخلو من الاضطراب ، بل لا يبعد كثير منه عن الخرافة أو الأسطورة ، ولا عجب ، فشعره كذلك لم يحظ بالدرس لدي القدامى من الأدباء والنقاد ، فهذا ابن سلام الجمحى ، الناقد ، والأديب ، صاحب طبقات فحول الشعراء ، وهو الذى وضع عبيد بن الأبرص فى الطبقة الرابعة ، من شعراء الجاهلية يقول عنه إنه : " قديم ، عظيم الذكر ، عظيم الشهرة " (١) ، ومع هذه الصفات السابقة يذكر أن: " شعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله :

أَقفَرَ مِن أَهلِهِ مَلحوبُ .·. فَالقُطَبِيّاتُ فَالذَنوبُ

ولا أدري ما بعد ذلك " (٢) .

ومعني هذا أن صاحب الطبقات ، وهو الناقد والأديب لا يحفظ حتى هذه القصيدة المشهورة التى اشتهر بها عبيد ، وقد عدها بعضهم من المعلقات ، حيث ختم بها التبريزى معلقاته العشر ، ولكن اللافت للنظر أن ابن سلام نفسه يعترف بأن عبيد بن الأبرص شاعر فحل ، وأنه لولا قلة شعره لوجب أن يكون

---

(١) طبقات فحول الشعراء السفر الأول ص ١٣٨ – قرأه وشرحه / أبو فهر محمود محمد شاكر – الناشر : دار المدنى بجدة – مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر .
(٢) السابق ص ١٣٨-١٣٩ .

مع الطبقة الأولي ، فهو عندما يتحدث عن الطبقة الرابعة -وعبيد أحد شعرائها عنده – يقول : " وهم أربعة رهط فحول شعراء ، موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة " [١] .

ومما ذكره ابن سلام -فيما سبق -يتضح لنا أننا أمام شاعر مشهور ، معروف لدى القدماء بشاعريته المتميز -وإن قل رجوعهم إلى شعره - ذلكم هو عبيد بن الأبرص بن جشم بن عامر بن هر بن مالك بن الحارث بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار [٢] .

هكذا نسبه فى أكثر المصادر الأدبية . كان شاعراً ذا شأن ، وكان لشعره شيوع وسيرورة [٣] ، عاش فى أواخر القرن الخامس وقرابة النصف الأول من القرن السادس الميلادي حيث شهد ثورة قومه على حجر الذى كان ملكا على بني أسد ، ويقدر الدكتور عمر فروخ أنه توفى سنة 545 أو بعد [٤] ذلك بقليل .

موطنه ومكانته فى قومه :

---

(١) طبقات فحول الشعراء – السفر الأول ص ١٣٩ .

(٢) مختارات شعراء العرب لابن الشجرى هبة الله بن على أبو السعادات العلوى المعروف بابن الشجرى ، ص ٣١٣ – ت / على محمد البجاوى – دار الجيل – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

(٣) تاريخ الأدب العربى الأدب الجاهلى (قضاياه - أغراضه - أعلامه - فنونه) ص ٤٣٩ – د/ غازى طليمات ، أ/ عرفان الأشقر – دار الرشاد – حمص – سوريا – ط الأولى ١٩٩٢م .

(٤) السابق ص ٤٤١ .

كانت قبيلة بني أسد قوم عَبيد تعيش فى نجد بين شمالى الحجاز وجنوبي الشام وشرقي الطريق التجاري الذى يصل الشام باليمن ، وغربي جبليْ طئ : أجا وسلمى .

ولعل قرب بني أسد من طئ أدي إلى نوع من الاتصال بالطائيين ، ويتضح من جغرافية موقعهم أنهم كانوا يجاورون الغساسنة ، ولذلك كانت أسد أولى القبائل غير اليمنية التى كان الملك الغسانى يحاربها لتأديبها ، وكف غزواتها عن ملكه ، وعن بلاد الرومان الرومان [١] .

وكثيراً ما افتخر عبيد بنسبه ، وبأصول بني أسد العريقة ، فهو حين يفتخر يذكر الخيام العالية ، التى تدل على السؤدد ، ويذكر الخيل العتاق ، التى توحي بقوتهم فى الحروب ، وبقدرتهم على الكر والفر ، ولا ينسي كذلك ما لهم من أندية ، ليشير بذلك إلى مكانتهم فى الشعر والأدب يقول :

اذهب إِلَيكَ فَإِنّي مِن بَني أَسَدٍ ∴ أَهلِ القِبابِ وَأَهلِ الجُردِ والنادى[٢]

وحق له أن يفخر بهذا النسب العالي ، والشرف والسؤدد ، فقبيلته فى مقدمة القبائل العربية – على حد زعمه -فهم الرؤوس – وليس الرأس كالذنب- وهذا النسب دفعها إلى التضحية بالأموال ؛ لتحمى الأعراض ، وإلي المطاعنة بالحراب ، والرماح ، والضرب بالسيوف ؛ لتدفع عن حرماتها الكيد والأذى هاهو ذا يقول :

---

(١)ينظر تاريخ الأدب العربى (الأدب الجاهلى – قضاياه – أغراضه) ص ٤٣٩ .
(٢)الجرد : الخيل ، والنادى : مكان الاجتماع ، أهل القباب : السادة .

إِنَّنا إِنَّما خُــلِــقنا رُؤوســاً ∴ مَن يُسَوّي الرُؤوسَ بالأذناب[١]

لا نَقي بِالأَحسابِ مالاً وَلَكِن ∴ نَجعَــلُ المالَ جُنَّةَ الأَحسابِ

وَنَصُدُّ الأَعداءَ عَنّا بِــضَربٍ ∴ ذي خِــذامٍ وَطَعننا بالحراب

وكانت قبيلة بني أسد أقصي قبائل معد شمالاً على الطريق من الجنــوب إلى فلسطين وسورية ، وراءها قبائل عذرة ، وجذام اليمنيــة علــى الطريــق التجاري ، وإلي شرقها وشمالها الشرقي قبيلة كلب اليمنية الأصل أيضــا فــى المنخفضات المسماة الآن بوادي سرحان والجوف ، يفصلها عــن بنــي أســد شريط واسع من السلاسل الرملية (النفوذ الآن) ، وقد زار أرض بني أسد هذه عدد من الرحالة الأوربيين[٢] ووصفوا ربوعها ، ومناظر هذه المواطن متنوعة ، ففي الشرق والشمال سلاسل جبال أجا وسلمى ، تمتد شمالاً بشرق ، وجنوباً بغرب وهي كتل هائلة من الجرانيت ، وفى الغرب المرتفع الرملى ، ومنــاطق الحصى المتاخمة لطريق الحج ، وتصبح فى الربيع مراعى خصــبة ، كثيــرة المياه ، وفى الوسط منطقة السلاسل والضــفائر مــن المرتفعــات الصــخرية المختلفة ، وفى الجنوب الحرات الكبيرة التى لا تخلو من المراعــي والميــاه ، وأكبرها حرة خبير[٣] .

---

(١) أراد بالرؤوس : السادة ، وبالأذناب : السفلة ، والجنة : كل ما بقى ، والخذام القطع ، والأبيات فى ديوانه ص ٢٣- ت د/ حسين نصار – دار المصرى للطباعة – نشر : مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ٢٠٠٤م .

(٢) راجع مقدمة ديوانه ص ١٤ – د/ حسين نصار .

(٣) ديوانه المقدمة ص ١٣-١٤ – ت د/ حسين نصار .

ويدل هذا الموقع لقبيلة بني أسد على أنها ليست بعيدة عن مدينة (حائل) الحديثة ، وأن دور بني أسد كانت مختلطة بدور بطون طئ .

شهد عبيد تملك حجر بن الحارث الكندى على بني أسد سنة500م فاختار أن يتصل به وينادمه وفى سنة530م عاد شيء من القوة إلى بني أسد فأبوا أن يستقر حكم حجر فيهم ، فأعلنوا عصيانهم بالامتناع عن أداء الإتاوة (الضرائب) فسار إليهم حجر وأساء معاملتهم ، ثم قتل نفراً من رؤسائهم ، وشرد طائفة منهم عن نجد إلى تهامة ، لكنه عاد فعفا عنهم بشفاعة عبيد ، فلما رجع المشردون انضموا إلى إخوانهم ، وحاربوا حجراً بقيادة علباء بن الحارث الكاهلى وقتلوه ، وبذلك انتهى حكم كندة على بني أسد [١] .

ثم اجتمعت بنو أسد بعد قتلهم حجر والد امرئ القيس إلى امرئ القيس ابنه على أن يعطوه ألف بعير دية أبيه ، أو يقيدوه من أي رجل شاء من بني أسد ، أو يمهلهم حولا ، فقال : أما الدية فما ظننت إنكم تعرضونها على مثلي ، وأما القود فلو قيد لى ألف رجل من بنى أسد ما رضيتهم ، ولا رأيتهم كفؤاً لحجر ، وأما النظرة فلكم، ثم إنكم ستعرفونني فى فرسان قحطان أحكِّم ظبا السيوف ، وشبا الأسنة حتى أشفى نفسي ، وأنال ثأرى ، فقال عبيد فى ذلك :

نَحنُ الأولى فاجمع جُمو ∴ عك ثُمَّ وَجِّهُهُم إِلَينا

وَاِعلَم بِأَنَّ جِيادَنا ∴ آلَينَ لا يَقضينَ دَينا

وَلَقَد أَبَحنا ما حَـمَيـ ∴ تَ وَلا مُبيحَ لِما حمينا [٢]

وأخفق امرئ القيس فى مسعاه ، ولم ينل من بني أسد ، وشمخ عبيد بما قال بين العرب ، وعلا شأنه ، وأصبح شاعر بني أسد .

وكان عبيد بن الأبرص يتردد على بلاط المناذرة فى الحيرة ، ثم زاد تردده هذا بعد مقتل حجر ، ولعل صلة امرئ القيس بن حجر بعبيد لم تبدأ قبل ثورة بني أسد على حكم كندة ومقتل حجر[٣] .

ولكن المستشرق (ليال) يرجح أنه ربما كانت هناك صلة بين امرئ القيس وعبيد قبل ثورة بني أسد على حجر مستدلا على ذلك بتوافقهما فى بعض القصائد حيث يقول : " ولا يرتبط عبيد بامرئ القيس بواسطة هذه الأحداث التاريخية وحدها ؛ إذ توجد إشارات واضحة فى أشعارهما كليهما تدل على أنهما عالجا موضوعات واحدة ، وربما اشتركا فى منافرات ودية(قبل ظهور العداوة بينهما) ، حيث يظهر الشاعران يستمدان من ذخيرة شعرية واحدة فى العبارات والموضوعات ، أو يعالجا موضوعاتهما معالجة واحدة "[٤].

ومما سبق يتبين لنا أن عبيد بن الأبرص كان ذا مكانة فى قومه ، وأنه أصبح بعد قتلهم لملكهم (حجر) شاعر بني أسد ، وذاع صيته فى العرب ، كما

---

(١) تاريخ الأدب العربى (الأدب الجاهلى – قضاياه – أغراضه – أعلامه) ص ٤٤٠ .
(٢) آلين : حلفن ، لا يقضين دينا : أى لا يمكنه طالب الوقر من الوفاء به ، والأبيات فى ديوانه ص ١٣٧ – ت .د/ حسين نصار .
(٣) تاريخ الأدب العربى : (الأدب الجاهلى – قضاياه – أغراضه) ص ٤٤٠ .
(٤) راجع مقدمة الديوان ص ١٥-١٦ (بتصرف يسير) .

يتضح لنا أنه لم يكن مستقراً فى بادية قومه ، كغيره من شعراء البوادي ، ولكنه كان يتجول فى الحواضر ، حيث كان ينزل فى بلاط المناذرة بالحيرة ، كما تتضح لنا أيضا مكانته الشعرية من خلال منافراته مع شاعر كبير من شعراء عصره ألا وهو امرؤ القيس .

وقد آثرت أن أدع كل ما يتصل بحياة عبيد وفنه الشعري من أخبار تشبه الأساطير ، أو لا تحمل طابع الصدق على حد تعبير أحد الباحثين[١] ، واكتفيت بأن أذكر ما قاله النقاد عن شعره ، وعن مكانته الشعرية ، وقد ذكرت فيما سبق أن عبيداً فى منزلة شعرية عالية بين شعراء عصره ، حيث وضعه ابن سلام فى الطبقة الرابعة ، مع ثلاثة من فحول الشعراء هم طرفة ،وعلقمة ، وعدي بن زيد ، وذكر عن هذه الطبقة ما يدل على مكانة شعرائها ، أما ابن قتيبة وهو ناقد وعالم بالشعر ، فقد جعل عبيد بن الأبرص أحد أصحاب المعلقات فى بائيته المعروفة :

أَقفَرَ مِن أَهلِهِ مَلحوبُ ∴ فَالقُطَبِيّاتُ فَالذَنوبُ

حيث قال عنها : " وهي إحدى السبع " ، كما عدها من أجود شعره [٢] ، كما ذكرت قبل ذلك أن التبريزى شرحها فى معلقاته العشر ، أما أبو زيد القرشي فقد بدأ جمهرته[٣] ببائية عبيد ، ولذلك يَعْجَبُ الدكتور حسين نصار

---

(١) مقدمة ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٧ .
(٢)الشعر والشعراء ٢٧٤/١.
(٣) جمهرة أشعارالعرب لأبى زيد القرشى – دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٤م .

لقلة رجوع القدماء لشعر عبيد ، فيقول : " وعجيب أن نجد الأقدمين من الأدباء واللغويين يقلون الرجوع إلى شعر عبيد والاستشهاد به فى أبحاثهم ، حتى لا نجد له ما نجد لمعاصريه وزملائه من الجاهليين فيما بين أيدينا من كتبهم " [١] ، وذكر الدكتور / غازي طليمات ، والأستاذ عرفان الأشقر أن (عبيداً) أوتي حظاً من القدرة على صوغ الكلام ، وتشقيقه ، وتنميقه ، فهو سباح ماهر ، يعوم فى لجج المعاني والأفكار ، ويتقلب بين أمواج الخواطر والمشاعر ، ويلاحق الصور الشاردة حتى يظفر بها ، ويغوص على الدرر فى مظانها البعيدة الغور[٢] كما ذكرا أن ما عناه النقاد القدامى بالاضطراب فى شعر عبيد ليس معناه الخروج على قواعد اللغة والنحو وإنما معناه نشوز الوزن ، ومن ينظر فى ديوانه كله لا تتضح له هذه الظاهرة إلا فى المعلقة وبعض المقطوعات ، أما المقدار الأعظم من شعره فقد أوفي على الغاية فى تنوع الأوزان ، وجمال الإيقاع [٣] .

* * * * *

---

(١)ديوانه المقدمة ص ٥ .
(٢) تاريخ الأدب العربى (الأدب الجاهلى – قضاياه – أغراضه – أعلامه – فنونه) ص ٤٤٣
(٣) السابق ص ٤٥٣ .

الفصل الأول

مظاهر البادية فى الموضوع والمضمون

مدخل :

الإنسان لا ينفك عن البيئة التى يعيش فيها – ولو حاول – ولذلك كان للبيئة أثرها فى تشكيل حياة الفرد والجماعة ، كما أن لها أثرها القوي على الإنسان ، فالجفاف ، والرطوبة ، والرياح ، والضوء ، والحرارة كل ذلك وغيره له تأثيره الذى لا ينكر على الكائن الحي بصفة عامة ، والإنسان على وجه الخصوص ، فللبيئة فى الإنسان تأثيرها الفعال ، سواء من ناحية تكوينه ، أو تفكيره ، أو إنتاجه على أى صورة من الصور؛ ولذلك رأى بعض الدارسين أنه بالإمكان استخلاص بعض الصور الاجتماعية من الأدب ، ورأي آخرون أن الأدب مرجع لتاريخ الحضارة ، وأهم كنز يضم العادات الاجتماعية[١] .

ولكل بيئة خصائصها وشخصيتها ، فخصائص الأدب فى بيئة معينة لا يمكن أن تكون هي نفس خصائصها فى بيئة أخرى ؛ لأن الشعراء عندما يتناولون موضوعا ما يتأثرون بنشأتهم وبيئتهم الاجتماعية .وأشعارهم تصور هذه البيئة أصدق تصوير[٢] .

ولقد درس الأدباء والنقاد قديما وحديثا أثر البيئة فى النتاج الأدبى ، وهناك إجماع من النقاد والأدباء على أن للبيئتين المكانية والزمانية تأثيرهما

---

(١) البيئة اليمنية وأثرها فى الشعر العربى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ص ٢١-٢٤ – د/ زياد محمد جبالى – ط الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م – مكتبة الآداب .

(٢) السابق ص ٢٥ .

على الأدب ، فقد ذكر الدكتور / عبد العزيز الدسوقي أن : " للبداوة والحضارة تأثيراً على الشعر ، فشعر البدوي يدور بين جبل وجمل ، وحط وترحال ، وخباء وحبال ، ونزال وغمام ، وما شابه ذلك ، من مشاهده التى هو فيها ، وشعره الحضري بين قصور وصور ، وترف وطرف ، ولهو وطرب ، وخلاعة وما شاكل ذلك[١] .

ومن الطبيعي – فى رأيى – أن يتباين شعر البادية عن شعر الحاضرة ؛ لأن ما شاهده البدوى يختلف عما شاهده الحضري ، فكلاهما يصف ما رآه ووقع عليه نظره [٢] .

وتحدث الدكتور / طه حسين عن تأثير البيئة فى النتاج الشعري ، فذكر أن تأثيرها يبدو واضحا فى الصور الفنية لدي شعرائها حيث يقول " :ومن أهم مظاهر تأثير البيئة العربية أنها جعلت الشعراء يستمدون منها تشبيهاتهم واستعاراتهم وهذا واضح جداً فى النسيب ، كتشبيه النساء بالمها والغزلان " [٣] ، والحق أن تأثير البيئة لا يتوقف عند الصور كالتشبيه والاستعارة ، بل يبدو واضحا فى كل جوانب الشعر لغة ومضمونا وبناءً .

وقد فطن النقاد القدامى لتأثير البيئة على الشعر ، فهذا ابن سلام يعلل سهولة شعر عدى بن زيد بأنه كان يسكن الحضر فيقول : " :وعدي بن زيد

---

(١) تطور النقد العربى الحديث فى مصر ص ١٨٠ – محمد دياب .
(٢) أثر التراث النقدى فى النقد الأدبى فى العصر الحديث – ص ٣٩ ، رسالة دكتوراه للباحث / أبو الوفا حمادة عفيفى – مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بأسيوط .
(٣) التوجيه الأدبى ص ١٦٤ .

كان يسكن الحيرة ، ويراكن الريف ، فلان لسانه وسهل منطقه " [١] .

والقاضي على بن عبد العزيز الجرجاني يبين أثر البيئة الجديدة (فى ظلال الإسلام) فى لغة الشعر ومضامينه فيقول : " فلما ضرب الإسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادي إلى القرى ، ونشأ التأدب ، والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله ، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعا، وألطفها من القلب موقعا ، وإلي ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها "[٢].

وفى القصة التى تناقلتها بعض كتب الأدب عما حكي عن بن الجهم – إن صحت –دليل على وعي القدماء بأثر البيئة فى العمل الأدبي حيث قدم على المتوكل وأنشده قصيدته التى يقول فيها مخاطبا الخليفة : [٣]

أَنتَ كَالكَلبِ في حِفاظِكَ لِلوُد ∴ دِ وكَالتَيسِ في قِراعِ الخُطوبِ

أَنتَ كَالدَلوِ لا عَدِمناكَ دَلواً ∴ مِن كِبارِ الدِلا كَثيرَ الذَنوبِ

فعرف المتوكل قوته ، ودقة مقصده ، وخشونة لفظه ، وعرف أنه ما رأى سوى ما شبهه به ، لعدم المخالطة ، وملازمة البادية ، فأمر بدار حسنة على شاطئ دجلة ، فيها بستان حسن ، يتخلله نسيم لطيف ، يغذي الأرواح ،

---

(١) طبقات فحول الشعراء – السفر الأول ص ١٤٠ .

(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه – ص ١٨ ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، محمد البجاوى – ط عيسى الحلبى ١٩٦٦م ، وضرب الإسلام بجرانه : ثبت واستقر .

(٣) ديوان على بن الجهم – ت / خليل مردم ص ١١٧ – منشورات دار الآفاق – بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م .

والجسر قريب منه ، وأمر بالغذاء اللطيف أن يتعاهد به ، وكان يركب فى أكثر الأوقات فيخرج إلى محلات بغداد ، فيرى حركة الناس ولطافة الحضر ، ويرجع إلى بيته ، فأقام ستة أشهر على ذلك ، والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضرته ، فاستدعاه الخليفة بعد مدة لينشده ، فحضر وأنشد :

عُيونُ المَها بَينَ الرُصافَةِ وَالجِسرِ ∴ جَلَبنَ الهَوى مِن حَيثُ أَدري وَلا أَدري

فقال المتوكل :لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة[١] .

ففي هذه القصة دليل واضح على تأثير البيئة فى الشاعر ، وتغير الأساليب والصور الأدبية تبعا لتغير البيئة والوسط الذى يعيش فيه الأديب .ثم إن من الشعراء مَنْ يرى أن لبعض البيئات أثرها فى قول الشعر "فشعاب الجبال ، وبطون الأودية ، والأماكن الخربة الخالية " بيئة صالحة للإبداع الشعري – كما يري الفرزدق : " والشعاب الخالية والرباع المقوية تفتح لنُصَيْب أبواب الشعر " [٢] .

وعلى أية حال فالبيئة – من غير شك – تترك أثرها القوي فى الإنسان عموما ، وفى الأديب على وجه الخصوص والإنسان ابن بيئته - كما يقولون[٣] -وليس من شك أيضا فى أن الآثار الأدبية صورة لصاحبها ، ولبيئته ولعصره،

---

(١) ديوان على بن الجهم – ت / خليل مردم ص ١١٧ .
(٢) مجلة مرافئ – العدد الرابع – شوال ١٤٢٢هـ - بحث بعنوان بواعث الشعر فى ضوء رؤية الشعراء والنقاد القدماء – د/ حمود الصميلى – ص ٢٠٢ – إصدارات نادى جازان الأدبى – السعودية .
(٣) البيئة اليمنية وأثرها فى الشعر العربى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ص ٢١ .

وعندما ندرس شعر عبيد بن الأبرص ومظاهر البادية فيه نستطيع رسم صورة للبيئة التى عاش فيها الشاعر ، ونستطيع أن نعرف مدى ارتباطه بها ، ومن ثم نتبين أثر البيئة فى شعره من خلال الموضوع ، ومن خلال البنـــاء الفنـــي ؛ لنستطيع أن نرد زعم الزاعمين بأن شعر عبيد منحول ولا يمثل حياة الجاهلين فى شىء .

فإن من يقرأ ديوان عبيد يجد نفسه أمام شاعر ارتبط بالبادية ارتباطـــا وثيقا ؛ فما من موصوف بدوى إلا وله فى شعره نصيب ، وربما كان ارتبـــاط عبيد بالبادية هو السبب الذى جعل ابن سلام الجمحى يقرنه بـــ (عدي بن زيد العبادى الحضرى) فيجعلهما فى طبقة واحدة ، ويري (ليال) المحقـــق الأول لشعر عبيد أن عبيد يلتقى مع عدي فى صبغة شعرهما التعليمية والأخلاقية ثم يقول : " ولاشك أن هذا سبب اقتران عبيد بـــ (عدى بن زيد الحضرى) ، الذى يختلف عن عبيد من جميع الوجوه الأخرى اختلافا كبيراً "[١] .

ولاشك فى أن مظاهر البادية تشتمل على الطبيعة الســـاكنة كالجبـــال ، والشعاب ، والأودية ، والسراب ، والدارات ، والحرات ، والغدران ، والآبار ، والأمطار ، والغيوم ، والرعد ، والبرق ، والسيول ، كما تشتمل على الطبيعـــة المتحركة التى تتمثل فى حيواناتها المأنوسة،كالخيل ، والإبـــل ، وغيرهمـــا ، والوحشية كالسباع ، والأفاعي ، والحشرات هذا إلى جانب الطيور المختلفـــة

---

(١) راجع مقدمة (ليال) فى ديوانه عبيد ص ١٨ – بتصرف – ت د/ حسين نصار .

التى تعيش فى البادية .

ومظاهر البادية فى شعر عبيد من ناحية الموضوع تتمثل فى أنه تناول كافة الموضوعات التى تتعلق بحياة البدو ، وفيما يلي نقف عند بعض مظـــاهر البادية التى تناولها عبيد فى موضوعاته .

* * * * *

المبحث الأول

الأطلال فى شعر عبيد

موضوع الأطلال مرتبط بحياة البدو ، التى تقوم على الحل والترحـــال ، فلا تستقر قبيلة منهم فى مكان إلا حين يتوافر فيه الماء والكلأ ، فـــإذا أقلعـــت السماء ، وأجدبت الأرض ارتحلوا إلى مكـــان آخـــر تتـــوافر فيـــه الأمطـــار والأعشاب ، ومن ثَمَّ كانوا فى رحلة مستمرة ، تخضع لمواسم معينة من العام ، فهم يقيمون على مياههم زمن اشتداد القيظ ، فإذا خفت حـــدة الحـــر تـــراهم يبدون ، يتتبعون مواقع الغيث ، ويتحولون فى معاشـــيب الأرض ، ويشـــربون ماء السماء ...وهم فى سلوة من العيش ... يرمى بهم النوى المرامى ، فمـــن شعب إلى شعب ، ومزار تَقْرب بَعْدَ بُعْدٍ ، ومواعيد بين الأحبة تنجز ، وعقـــود من حبال جوار توثق ، حتى إذا أقبلت أوائل الحر ، بدلت الأرض ، فيتفرقـــون فى مباديهم ،ويعودون إلى مواطنهم، فكم قلب لفراق الأحبـــة جـــزع ، ودمـــع لوداعهم همع ، وأنس لبينهم انقطع ، ووجد لبعدهم تجدد ، وكل هذا تحدثوا به فى أشعارهم[١] .

ولهذا كان الحديث عن الأطلال السمة البارزة لدى الشعراء فى العصـــر الجاهلى ؛ وذلك لطابع البداوة الذى كان السمة الغالبة على العـــرب فـــى ذلـــك العصر ، ويري بعض الأدباء أن ارتباط الشاعر الجاهلى بالأطلال شـــكل مـــن

---

(١) أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ص ٢٣ – نقلا عن الأرمنة والأمكنة للمرزوقى ١٢٧/١.

أشكال الإخلاص للماضي ، وللأهل ، وللمحبوبة [١] .

أما عن الأطلال فى شعر عبيد بن الأبرص فهى من الموضوعات البارزة عنده ، وحديثه عنها شغل حيزا كبيراً فى شعره ، وعبيد ليس بدعا فى ذلك ، فالأطلال والوقوف عليها من الأغراض البارزة فى الشعر الجاهلى منذ أقدم النصوص التى وصلتنا عن هذا العصر ، فقد وقف عليها ابن خِذام الذى لا نعرف عنه شيئا سوي اسمه الذى ورد فى بيت امرئ القيس ، والذي يشير فيه إلى أن هذا الشاعر أول من بكي الديار ، ووقف على الأطلال فيقول :

عوجا عَلى الطَلَلِ المَحيلِ لأَنَنا ∴ نَبكي الدِيارَ كَما بَكى اِبنُ خذام[١]

ولقد حظى هذا الموضوع فى القصيدة الجاهلية بما لم يحظ به موضوع آخر .

ويتضح لمن يتصفح ديوان عبيد بن الأبرص أنه شاعر ارتبط بالأطلال قلبا وقالباً ، فلا تكاد تجد قصيدة فى ديوانه خلت من ذكر للأطلال والديار.

وقصيدته التى اشتهر بها عند القدماء (أقفر من أهله ملحوب) وعدها بعضهم من المعلقات –كما سبق أن أوضحت -خير دليل على ارتباطه بالطلل ، هذه القصيدة التى تختلف مقدمتها عن غيرها من المقدمات الطللية فى العصر الجاهلى أو على الأقل فى مقدمات المعلقات ؛ فالشاعر يرصد فيها أطلالا لأحبة لا يذكر أسماءهم – كعادة الشاعر الجاهلى - وإن ذكر التصابي الذى يدل عليهم فى البيت الأخير من هذه المقدمة التى بدأها بقوله :

---

(١) تاريخ الأدب العربى (الأدب الجاهلى – قضاياه – أغراضه – أعلامه – فنونه) ص ٤٣٠.

أَقفَرَ مِن أَهلِهِ مَلحــوبُ ∴ فَالقُطّــبِيّاتُ فَالــذَنوبُ

فَــراكِسٌ فَثُــعَــيلِبــاتٌ ∴ فَــذاتُ فِرقَينِ فَالقَــليبُ

فَــعَــردَةٌ فَقَــفا حِبِــرٌ ∴ لَيسَ بِها مِنهُمُ عَريــبُ

وبُدِّلَت أَهلُها وُحــوشــاً ∴ وَغَيَّرَت حالَها الخُطوبُ

أَرضٌ تَوارَثُها شَــعــوبُ ∴ فكــل مَن حَلَّها مَحروبُ

عَيناكَ دَمعُهُما سَــروبُ ∴ كَــأَنَّ شَأنَيهِــما شَعيبُ

تَصبو وأنى لَكَ التَصــابى ∴ أَنّى وَقَد راعَكَ المَشيبُ

إِن يَكُ حُوِّلَ منها أَهلُها ∴ فَلا بَديءٌ وَلا عجيب[٢] .

فهو يقول : إن هذه الأماكن قد خلت من ساكنيها ، وتغير حالها ، فــلا ماء فيها ولا حياة ، لم يبق فيها إلا الوحوش التى بُدِّلت بأهلها بعد ما أصــابها من خطوب ، وهكذا بدت الأطلال خالية من كل مظهر من مظاهر الحياة ، فــلا إنس ، ولا ماء ، ولا كلأ ، رغم وجود هذه الأطلال حقيقــة ، أو فــى مخيلــة الشاعر ، وفى هذا دلالة على أن رغبة داخلية فى نفسه تلح عليه أن تبقى هذه الأطلال قائمة ، ولــو فــى الــذاكرة علــى الأقــل ، وتمتــد هــذه الأطــلال – كما ترى – من ملحوب ، فالقطبيات ، فالذنوب ، فراكس ، فثعيلبات ، فذات فرقين ، فالقليب ، فعردة ، فقفا حبر ، ولم يذكر صويحباته فى هــذه الأمــاكن

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ١١٤ – طبع دار المعارف .
(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٠-١٣ – ت د/ حسين نصار .

كغيره من الشعراء ، ولكنه يبدو أكثر صراحة من غيره ، عندما يذكر أن هـذه الأماكن أقفرت من البشر (ليس بها منهم عريب) ، دون أن يكذب أو يتجمـل بذكر اسم أو اسمين من أسماء النساء -كما هو الحال عند الشعراء الجاهليين -فالقضية واضحة لديه ، إنه الخراب أو الجدب الذى يكاد يعم جزيرة العـرب ؛ نتيجة لظروف طبيعية خاصة بهذا المكان ، وقد نقله إلـى الشـعر فـى هـذه القصيدة .

ويبدو الشاعر أكثر صراحة من غيره أيضا عندما يذكر أن الديار - بعد إقفارها – بدلت من أهلها وحوشا ؛ ذلـك أن غيـره مـن الشـعراء يسـتبدل بالمحبوبة حيوانات ، تربطها بالمرأة قرابة ، على مستوي الفن أو الأسطورة ، من مها ، وغزلان لأغراض فنية ، ولكن عبيداً لا يرى فى هذه الحيوانات سوي وحوش حلت محل الإنس من أهلها .

إنه يريد أن يشيع الإحساس بالوحشة فى هـذه الأمـاكن المجدبـة ... وأنهى بكاء الأطلال بمشهد يزيد على بكاء الشعراء قبله[١] :

عَيناكَ دَمـعُهُما سَروبُ ∴ كَأَنَّ شَأنَيهِما شَـعيبُ

أَو فَـلَجٌ مـا بِبَطنِ وادٍ ∴ لِلماءِ مِن بَينِهِ سُكوبُ

أَو جَدوَلٌ في ظِلالِ نَخلٍ ∴ لِلماءِ مِن تَحتِهِ قَسيبُ

---

(١) راجع : قراءة أخرى فى شعر المعلقات بحث للدكتور / عمر عبد الواحد ضمن كتاب الشعر العربى القديم (دراسته وسبل تذوقه) ص ٥٠ – د/ عمر عبد الواحد – وآخرين – دار الأندلس بحائل السعودية ١٩٩٨م .

وقد أشار إلى هذا الخراب والجدب ، الذى يكرهه هو وغيره باسم من أسماء المنية وهو (شعوب) :

أَرضٌ تَوارَثُها شُعوبُ ∴ وَكُلُّ مَن حَلَّها مَحروبُ

ثم لا يجد غرابة فى ذلك ، فهذا حال كل شىء فى الحياة ، فلا غرابة ولا عجب ، فليست هذه الدور وحدها هي التى خلت من أهلها وأقفرت :

إِن يَكُ حُوِّلَ منها أَهلُها ∴ فَلا بَدِيءٌ وَلا عَجيبُ

أَو يَكُ أَقفَرَ مِنها جَوُّها ∴ وَعادَها المَحلُ وَالجُدوبُ

وكأنه يعزى بذلك نفسه فيما أصاب هذه الدور وما آلت إليه من خراب واقفرار .

ومن المقطوعات التى تناول فيها عبيد الأطلال هذه المقطوعة التالية ، والتي يري الدكتور حسين نصار أنها قيلت فى الظروف التى قيلت فيها قصيدته السابقة (أقفر من أهله ملحوب) ، مستدلا على ذلك بأن المواضع التى أشار إليها الشاعر فى هذه المقطوعة هي نفسها التى أشار إليها فى قصيدته المذكورة ، وهو هنا لا يبكي ديار محبوبته ، وإنما يبكي ديار قومه بنى سعد بن ثعلبة الذين أبادت منهم الحروب والخطوب ما أبادت ، وبخاصة حروبهم مع الغساسنة فيقول :

لِمَن طَلَلٌ لَم يَعفُ مِنهُ المَذانِبُ ∴ فَجَنبا حِبرٍّ قَد تَعَفّى فَواهِبُ

دِيارُ بَني سَعدِ بنِ ثَعلَبَةَ الأولى ∴ أَذاعَ بِهِم دَهرٌ عَلى الناسِ رائِبُ

فَأَذهَبَهُم ما أَذهَبَ الناسَ قَبلَهُم ∴ ضِراسُ الحُروبِ وَالمَنايا العواقب[١]

وهكذا يبالغ الحزن والأسى يذكر ديار قومه ، الذين كانوا ملء السمع والبصر ، حيث بنوا على سمع الزمان صروح مكانتهم ، وارتقوا سُلَّم عزهم حينا من الدهر ، ثم تفرقوا ، ودالت دولتهم ، وأفنت الحروب منهم مثلما أفنت من غيرهم ، وهم ليسوا بدعا فى ذلك ؛ فقد أذهبهم ما أذهب الناس قبلهم ، وكأنه يعزي بذلك نفسه فى الذين قضوا منهم .

ثم أخذ يعدد مآثرهم بإيجاز شديد ، فهم قوم أقوياء ، كانت لهم عزتهم ومنعتهم فى هذه الأماكن ، حيث كانوا يرهبون أعداءَهم ، وجيشهم تهابه الفرسان الأقوياء :

أَلا رُبَّ حَيٍّ قَد رَأَينا هُنالِكُم ∴ لَهُم سَلَفٌ تَزورُّ مِنهُ المناقب[٢]

فحديثه عن الأطلال فى هذه المقطوعة لا يتجاوز هذا المضمون ، وهو أنها لم تعف – حقيقة أو فى ذاكرته – وأن أهلها الأقوياء الشجعان قد فرقتهم يد المنون كما فرقت غيرهم .

وفى قصيدته (لمن الدار أقفرت بالجناب) نراه يبين ما أصاب هذه الدار

---

(١) الديوان ص ٢١- ٢٢ – ت .د/ حسين نصار ، والمذانب أسفل الوادى ، وحبر :جبلان فى ديار بنى سعد . أذاع بهم : فرقهم ، رائب : شديد ، أذهبهم : أفناهم ، ضراس الحرب : الشديدة العنيفة . العواقب : التى تأتى المرة بعد المرة .

(٢) هنا لم : يريد المواضع التى ذكرها فى ديار قومه ، والسلف : الجيش المقدم ، تزور منه : تعدل عنه خوفا ، المناقب : جمع منقب وهو من العشرين فارسا فما فوق .

من ظروف الطبيعة البدوية ، وكيف تغيرت منها المعالم ؛ بسبب رياح الشمال ورياح الجنوب ، وبسبب تتابع الرعد الذى يعقبه مطر غزير ، وكيف أوحشت بعدها كانت محل أنس لأحبته البيض الحسناوات ، ومسرحاً ومُراحاً للإبل والخيول الكريمة.

لقد تغير حالها ، فصارت مأوى للظباء التى لا تقطن إلا القفار ، وقد كانت من قبل عامرة بأهلها وبالمحبوبة التى أسرته بدلالها وجمالها ، وهيج شوقه إليها ما تبقى من معالم تلك الدار بعد طول غياب عنها حتى حل الشيب منه محل الشباب :

لِمَنِ الدارُ أَقفَرَت بِالجَنابِ ∴ غَيرَ نُؤيٍ وَدِمنَةٍ كَالكِتابِ

غَيَّرَتها الصَبا وَنَفحُ جَنوبٍ ∴ وَشَمالٍ تَذرو دُقاقَ التُرابِ

فَتَراوَحنَها وَكُلُّ مُلِثٍ ∴ دائِمِ الرَعدِ مُرجَحِنِّ السَحابِ

أَوحَشَت بَعدَ ضُمَّرٍ كَالسَعالي ∴ مِن بَناتِ الوَجيهِ أَو حَلابِ

وَمُراحٍ وَمَسرَحٍ وَحُلولٍ ∴ وَرَعابيبَ كَالدُمى وَقِبابِ

هَيَّجَ الشَوقَ لي مَعارِفُ مِنها ∴ حينَ حَلَّ المَشيبُ دارَ الشَبابِ

أَوطَنَتها عُفرُ الظِباءِ وَكانَت ∴ قَبلُ أَوطانَ بُدَّنٍ أَتراب

خُرَّدٍ بَينَهُنَّ خَودٌ سَبَتني ∴ بِدَلالٍ وَهَيَّجَت أطرابي[1]

---

(١) الديوان ص ٢١- ٢٢- ت .د/ حسين نصار .
الجناب موضع بجوار فيه لسعد بن ثعلبة ،النؤى : الحفير حول الخيمة يمنع السيل ، الدمنة : آثار الديار ،الصبا : ريح الشمال ، نفع : ريح الجنوب، تذور : تطير، دقائق التراب : الناعم الذى تطيره الرياح ، تراوحنا تعقين عليها ،الملث المطر الدائم : المرجمن : المهتز ، أوحشت :

وهكذا يدفعه الحديث عن الأطلال إلى الحديث عن أحبته ، الذين كانوا يسكنون هذه الديار ، فيصف هذه المحبوبة بين صويحباتها فيما لا يتجاوز ثلاثة أبيات ، ولكنه وصف جامع للجَمَال المطلوب فى المرأة –على الأقل فى مجتمعهم –ليتنقل بعد ذلك إلى الفخر بقبيلته ، ذات الحسب ، والشجاعة فى الحرب ، لكن اللافت للنظر أن الشاعر يصر على أن تبقى الأطلال عامرة حية ، وكأنه يريد أن يُقنع نفسه بأن ديار أحبته باقية لا تغيب ، ثابتة لا تتغير ، مهما كانت قوة العوامل الطبيعية ، وخير دليل على ذلك حرصه على أن يُسميها داراً، مع أنها ليس لها من سمات الدار شيء يذكر ، وتشيع فى هذه الأبيات روح الحزن ، الذى أفصحت عنه الكلمات ، بحسبنا أن نتحسس حزنه على شبابه الذى ولي عندما عبر عنه بلطف :

*حينَ حَلَّ المَشيبُ دارَ الشَبابِ *

هكذا بهذا التصوير الذى اشتمل على التشخيص والتجسيم معاً للشيب ؛ وهو علامة كبر السن ، وأمارة الضعف – غالبا - وأحيانا نجد عبيد بن الأبرص يجْزَئ الحديث عن الأطلال ويقطعه منتقلاً إلىً موضوع آخر مرتبط بالأطلال ألا وهو صاحبته التى كانت تسكن هذا الطلل ، ففي قصيدته (لمن

أقفرت، الضمر : الدقيقة القليلة اللحم ؛ السعالى : جمع سعلاة وهى الغول الوجيه : فرس معروف بكرم أصله ، حلاب : فرس كريم أيضاً ، المراح مأوى الإبل ، المسرح : مرعاها ، الحلول : الإقامة ، الرعابيب : البيض الحسناوات من النساء أوطنتها : اتخذتها وطنا ، العفر : جمع أعفر وعفراء ، وهو ما يعلو بياضه حمرة ، والبدن جمع بادن وهو السمين :

دمنة أقوت بجوة ضرغد) لا يتعدي بكاء الطلل مطلع القصيدة ، إذ سرعان ما ينتقل عبيد إلى الحديث عن محبوبته ، صاحبة الطلل .

وفى هذا المطلع يحدد مكان الطلل ، والذي يقع كما يقول بـ (جوة) وهي القطعة من الأرض فيها غلظ ، و(ضرغد) أرض غطفان من العالية ، وفى الشطر الثانى يشير إلى أن بعض آثار هذه الديار باقية ، ولذلك يشبهها بعنوان الكتاب المجدد ، وهذا إنما لرغبة نفسية فى أنه لا يريد لهذا المكان أن يندثر أو يغيب :

لِمَن دِمنَةٌ أَقوَت بجوة ضَرغَدِ ∴ تَلوحُ كَعُنوانِ الكِتابِ المجدد [١]

وتأتي كلمة (تلوح) ؛ لتعبر عن رغبته النفسية تلك ، فتشير هذه الكلمة إلى أن الأطلال تظهر ثم تختفي ، وكأن الشاعر يرمقها من بعيد ، ثم ينتقل مباشرة إلى صاحبة الديار ، وهي سعدى التى تكافئ بودها المحب :

لسعدى إِذ كانَت تُثيبُ بِوُدِّها ∴ وَإِذ هِيَ لا تَلقاكَ إِلّا بأسعد[٢]

وأحيانا نجد عبيداً أثناء حديثه عن الأطلال يعمد إلى الرصد الحرفي للمكان الذى فيه الطلل ، ويعطينا صوراً واضحة له ولما لحقه من اقفرار وإقواء[٣]، ولكنه يحلم بعودة الحياة إليه مرة أخرى من خلال ما توحي به

والأتراب : جمع ترب وهو من ولد معك ، والخرد : العذارى ، والخود المرأة الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة ، سبتنى : أسرتنى ، الأطرب : جمع طرب وهو الخفة .

(١) الديوان ص ٥٢ .

(٢) السابق والصحيفة نفسها ، وتثيب : تكافئ ، بودها بحبها .

(٣) الاقفرار والإقواء يعنيان خلو الدار من أهلها فهذا من باب التأكيد على حد قول عنترة .

الكلمات ، وذلك كما فى قصيدته (لمن الديار بصاحة فحروس) حيث يذكر فيها هذه الديار التى تقع بصاحة ، وصاحة هذه (جبل وهضاب حمر قرب عقيق المدينة) ، ثم يبين ما فعلته بها عوامل الزمن ، لقد محيت معالمها ، وغادرها أهلها بعد ما كانت مأنوسة بهم ، ثم لا يلبث أن يعاوده حلم بعودة الحياة إلى هذا الطلل الدارس ؛ تحقيقا لرغبة داخلية فيه ؛ فيستثنى من آثار الديار بعض أشياء يذكر أنها لا تزال باقية – على الرغم من أنه أكد دروس الدار فى البيت الأول – ومن هذه الأشياء التى يستثنيها مواقد النار ، ويشبه هذه المواقد بالكتابة القديمة فى ورق بال يقول[١]

لِمَنِ الدِيارُ بِصاحَةٍ فَحَروسِ ∴ دَرَسَت مِنَ الإِقفارِ أَيَّ دُروسِ

إلا أَوارِيّاً كَأَنَّ رُسومَها ∴ في مُهرَقٍ خَلَقِ الدَواةِ لَبيسِ

وبعد أن جمع الدار فى البيت الأول أفردها فى البيت الثالث ، وذكر صاحبتها لتكون داراً خاصة بمحبوبته وليست ديار القوم ؛ فربما أوحت كلمة (ديار) بأنها منازل القبيلة ، فأفردها هنا ، وحدد أماكن اللقاء بالمحبوبة بصورة أدق فقال :

حييت من طلل تقادم عهده ∴ أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

انظر : شرح المعلقات السبع الطوال للزوزنى – ضبط وتعليق د/ عمر فاروق الضباع – ص ٢١٨ – طبع دار الأرقم بن الأرقم للطباعة والنشر – بيروت .

(١) الديوان ص ٦٧ ، والأوارى جمع آرة ، وهى الموقد ، والمهرق : الصحيفة ، واللبيس : الخلق البالى .

دارٌ لِفاطِمَةَ الرَبيعَ بِغَمرَةٍ ∴ فَقَفا شَرافِ فَهَضبِ ذاتِ رؤوس [١]

إنها دار لمحبوبته فاطمة التى جمعه معها وقت الربيع فى هذه الأماكن المتعددة : غمرة ، وقفا شراف ، وهضب ذات رؤوس.

وأحيانا يذكر عبيد الأطلال ، ودروسها ، وتغير معالمها ، وكيفية تعرفه عليها ، ويذكر ما رآه أمامه من خراب وإقفار ثم يستطرد بعد ذلك لذكر أسباب هذا الخراب ، الذى حل بالديار ، فتارة يركز على الرياح الشديدة العاتية ، التى لا تزال تسفي ذرات التراب على آثار تلك الديار فتمحوها ، كقوله :

تحاول رسما مِن سُلَيمى دَكادِكا ∴ خَلاءً تُعَفّيها الرِياحُ سواهكا [٢]

فهو يخاطب نفسه أو يجرد منها إنسانا آخر ويخاطبه قائلا :تحاول التعرف على هذا الرسم الذى أصبح دكا دكاً ، وهو الأماكن المستوية من الأرض ، واحده : دكدك وهو المستوى من الأرض ، وذلك بفعل الرياح السواهك المحملة بالتراب المسهوك ، والتي بمرها مراً شديداً على هذه الرسوم الباقية من ديار سليمى كادت تمحوها ، وذلك بعد أن غادرها أهلوها ، فأصبحت خلاءً يبابا .

ثم بعد ذلك ينتقل إلى ما آلت إليه هذه الديار ، فيصف حالها بعد أن تعرف عليها ، فيقول :

---

(١) السابق ص ٦٨ .
(٢) الديوان ص ٩١ ، والبيت فى مختارات ابن الشجرى – ت / على محمد البجاوى ص ٣١٤ – دار الجيل – بيروت – لبنان – ط الأولى ١٩٩٢م .

تبدلَ بَعدي مِن سُلَيمى وَأَهلِها ∴ نَعاماً ترعَّاه وَأُدماً ترائكا [١]

هذه صورة الديار الآن ، فبعد أن كانت عامرة بأهلهـا ، ومـن بيـنهم سليمى ، هاهى مقفرة بعدهم ، فقد أصبحت مسرحاً للنعام البيض ترعى فيهـا مرة بعد مرة .

وهكذا انتهى حديثه عن الرياح وأثرها فى الديار بانتهاء البيـت الأول ، وبقي إصرار الشاعر على أن يطلق اسم الديار على أطلال محبوباته ، كما بقى إصراره على جعلها تموج بالحياة والحركة ، المتمثلة فى حركة النعام – كمـا فى البيت السابق - أو النعام والظباء ، كما فى قوله فى أطلال الدفين [٢] ، وهو واد قريب من مكة :

بُدِّلَت مِنهُمُ الدِيارُ نَعاماً ∴ خاضِباتٍ يُزجينَ خَيطَ الرِئالِ

وَظِباءً كَأَنَّـهُنَّ أَبـاريـ ∴ قُ لُجَينٍ تَحنو عَلى الأطفال[٣]

وهذا الإصرار دليل على رغبة الشاعر فى أن تبقى أطلال أحبته ، رغم كل العوامل التى من شأنها أن تمحوها ، فإن لم يستطع ذلك فلتبق– على الأقل – فى ذاكرته.

---

(١) الديوان ص ٩٢ .
(٢) السابق ص ١٠٥ .
(٣)السابق ص ١٠٦ .
وخاضبات مخضرة السيقان ، يزجين يسقين ، والخيط : جماعة النعام ، والرئال : جمع رئل ، وهو فرخ النعام واللجين : الفضة ، شبه الظباء بأباريق الفضة لطول أعناقها وحسنها وبياضها .

وإذا كان عبيد قد ذكر الرياح ، كسبب من الأسباب التى أدت إلى دروس ديار سليمى ، ومحو معالمها – كما سبق – فإنه ذكر الأمطار مع الرياح ، كسببين لمحو معالم ديار هند كما فى قوله :

يا دارَ هِندٍ عَفاها كُلُّ هَطّالِ ∴ بِالجَوِّ مِثلَ سَحيقِ اليُمنَةِ البالي

جَرَت عَلَيها رِياحُ الصَيفِ فَاطَّرَدَت ∴ وَالريحُ مما تُعَفّيها بأذيال [١]

فهو يذكر هنا أن المطر المتدفق قد عفا معالم تلك الديار ، إلى جانب هذه الرياح ، التى جرَّت عليها التراب ، كما تجر المرأة ذيل ثيابها ، لتمحو معالم السير .

وأحيانا يضيف إلى السببين السابقين الرياح والمطر سببا ثالثاً ، وهو طول الزمن الذى مر على هذه الديار ، كما فى قوله فى ديار (كُبَيْشَة) :

حَلَّت كُبَيشَةُ بَطنَ ذاتِ رُؤامِ ∴ وَعَفَت مَنازِلُها بِجَوِّ بَرامِ

أَقوَت مَعالِمُها وَغَيَّرَ رَسمَها ∴ هوجُ الرِياحِ وَحِقبَةُ الأَيّامِ

حَتّى أَذَعنَ بِهِ وَكُلُّ مُجَلجِلٍ ∴ حَرِقِ البَوارِقِ دائِمِ الإرزام [٢]

فديار كبيشة هذه درست ، وأقفرت ، أو بادت معالمها المعروفة ، من أثافي ، ورماد ، ومربط الخيل ، ومراح الإبل ، وغير ذلك ، بسبب ما تعاقب عليها من رياح شديدة هوجاء ، وبسبب ما تعاقب عليها من أزمنة (حقبة

---

(١) الديوان ص ١٠٢ .

(٢) الديوان ص ١٢١ ، وكبيشة : اسم امرأة ، برام ورؤام : موضعين ، والجو : ما اتسع من الأرض ، وأذعن به : تفرقت الرياح بهذا المنزل .

الأيام) ، إلى جانب السحاب ، ذى الرعد المصوت ، والبرق السريع ويعنى بهما السحاب المحمل بالمطر .

ونجد عبيداً فى بعض قصائده يؤخر ذكر المحبوبة ، فيبكي الطلل ، ويصف ما فعلته به الرياح والأمطار ، كما يصف حاله يوم أن مر بهذا المكان وما اعتراه من ألم وحزن ، ثم بعد ذلك يذكر المحبوبة التى كانت تسكن هذه الدار ، كما فى قوله :

أَمن رُسومٍ نَؤيُها ناحِلُ ∴ وَمِن دِيارٍ دَمعُكَ الهامِلُ

قَدْ جرَّت الريحُ بِها ذَيلَها ∴ عاماً وَجَونٌ مُسبِلٌ هاطِلُ

حتى عفاها صيِّت رعده ∴ دانى النواحى مسبل وابل

ظَلَت بِها كَأَنَّني شارِبٌ ∴ صَهباءَ مِمّا عَتَّقَت بابِلُ

بَل ما بُكاءُ الشَيخِ في دِمنَةٍ ∴ وَقَد عَلاهُ الوَضَحُ الشامِلُ

أَقوَت مِنَ اللائي هُمُ أَهلُها ∴ فَما بِها إِذ ظَعَنوا آهِلُ

وَرُبَّما حَلَّت سُلَيمى بِها ∴ كَأَنَّها عُطبولَةٌ خاذِلُ[1]

فهو يُسائل نفسه ، أتبكي على تلك الرسوم الدارسة بهذه الدموع المدرارة ؟ وماذا تجدى الدموع هنا ، وقد تغير كل شيء؟ ثم يلتقط صورة لما حل بهذه الديار ، من خراب ، واقفرار بسبب الرياح والمطار ، ويذكر حاله يوم

---

(١) الديوان ص ٦٧-٩٨ ، والنؤى : أثر الديار ، والناحل : البالى ، والجون السحاب الأسود ، والمسبل : الدانى من الأرض ، صيت : عظيم الصوت ،

أن مر عليها فرآها على هذه الحال ، فإذا هو كالتائه الذى سلبت الخمر لبه ، وفعلت فعلها هذا به ؛ لأنها خمر عتيقة مصنوعة فى بابل ، ثم يقول :وكيف لشيخ مثله أن يقف على أثر ، وقد دب الشيب إليه وغزا شعره ، ثم يعود بعد ذلك ليذكر إقفار الديار بعد أن كانت آهلة بأهلها ، وأخيراً يذكر اسم المحبوبة وهي سليمى ، التى يصفها فى بيت واحد مشبها إياها بالظبية فى طول العنق ، وحسنه ، وبياضه.

وأحيانا نجد عبيداً يقف على الأطلال ، ويذكر هجر الأحبة لها ، ويوم الفراق ، ولكنه لا يذكر أسماء هؤلاء الأحبة ، كما فى قصيدته :

أَمِن مَنزِلٍ عافٍ وَمِن رَسمِ أَطلالِ ∴ بَكيتَ ؟ وَهَل يَبكي مِنَ الشَوق أَمثالي ؟

دِيارُهُمُ إِذ هُم جَميعٌ فَأَصبَحَت ∴ بَسابِسَ إِلا الوَحشَ في البَلَدِ الخالي

قَليلاً بِها الأَصواتُ إِلّا عَوازِفاً ∴ وإلا عراراً مِن غباهب آجالِ

فَإِن تَكُ غَبراءُ الخُبَيبَةِ أَصبَحَت ∴ خَلَت مِنهُمُ وَاِستَبدَلَت غَيرَ أَبدالِ

فقدماً أَرى الحَيَّ الجَميعَ بِغِبطَةٍ ∴ بِها وَاللَيالي لا تَدومُ عَلى حال[1]

فهو يتخيل سائلا يسأله :أتبكي منزلا درس ، وأطلالاً لم تبق منها إلا الرسوم ؟ وما كان لمثلك أن يبكى ، بل عليه أن يتذرع بالصبر ويتظاهر

والجلية والوابل : المطر الشديد ، والعطبولة الظبية الطويلة العتق ، والخاذل : انفردت من القطيع .

(١) الديوان ص ١١٢-١١٣ ، والبسابس : جمع بسبس وهو المكان الخالى ، والعوازف : الرياح ، والعرار : صياح ذكر النعام ، والغياهب : جمع غيهب وهو الشديد السواد ، والآجال : جمع إجل وهو القطيع من البقر والظباء .

بالتماسك ، فيعلل بكاءه بتغير الحال فى ديار أحبته ويذكر ما حل بهـا ، فقـد أصبحت سكنا للوحش ، وليس فيها إلا أصوات الرياح(العوازف) ، وأصـوات ذكور النعام السود ، فهذا المكان الذى موضعه فى ديار بني أسد قد خـلا مـن ساكنيه من الإنس ، وسكنته بدلا منهم قطعان النعـام ، ودليـل ذلـك صـياح ذكورها .

وبعد أن تفرس ملامح الديار ، على حالها الراهن ، تعود إلـى ذاكرتـه صورة من صور الحياة فى هذه الديار ، فى سالف الأيام ، حيث أهلها فى غبطة وسرور ، ولكن أني للسرور أن يدوم ، فالليالي لا تدوم على حال -علـى حـد قوله - وهكذا نجده لم يشر إلى اسم صاحبته التى يقف على أطلالها ، لا مـن قريب ، ولا من بعيد ، ولا يقف عند جمالها ، ولكنا نجـده يحـرص علـى أن يُسمى الأطلال منزلا أو ديارا – كعادته - وهما إنما يطلقان على المعمور.

وأحيانا نجد عبيداً لا يقف على أطلال الأحبة ، وإنما يقف على أطـلال قومه بني أسد ، ويتحسر على تفرقهم ويشيد بماضيهم فيقول :

لِمَـنِ الدِيـارُ بِبُـرقَةِ الرَوحانِ ∴ دَرَسَت وَغَيَّرَها صُروفُ زَمانِ

فَـوَقَفتُ فيها ناقَتي لِسُـؤالِها ∴ فَـصُرِفْتُ وَالعَينـانِ تَبتَدِرانِ

سَجمـاً كَـأَنَّ شُـنانَةً رَجَبِيَّةً ∴ سَبَقَت إِلَيَّ بِمائِـها العَـينانِ

أَيّامَ قَـومي خَيرُ قَـومٍ سوقَـةٍ ∴ لِمُعَصِّبٍ وَلِبـائِسٍ وَلِـعـاني

وَلَنِعــمَ أَيسارُ الجَزورِ إِذا زَهَت ∴ ريــحُ الشِتاءِ وَمَألَفُ الجيران[1]

فهو يبكي على ماضي قومه بكاءً حاراً فقد كــانوا قومــاً كرامــا يجــد الجائع، والأسير ، والمهموم عندهم الأمن ، والطعام ، والألفة.

وواضح من حديث عبيد عن الأطلال أنه لا يكاد يخرج عن محور واحد فيها ، وهو أنها درست ، وعفت معالمها ، وأن الرياح ، أو الأمطار ، أوهمــا معا السبب فى محوها ، وطمس معالمها ، مع طول الزمن ، لا فرق فــى ذلــك بين أطلال سليمى ، أو مية ، أو سعدى ، أو أم عمرو ، أو كُبَيْشَة ، أو هنــد ، أو ديار لم يسم صاحباتها ، وواضح كذلك حرصه على أن تبقى هذه الــديار - رغم ما تعاقب عليها من رياح وأمطار وأزمنة -فقد وجدناه فى كل المقــدمات الطللية التى سبقت يؤكد أن هذه الأطلال باقية فى صورة تلك الآثار ، أو الدمن، أو النؤى، أو الأحجار ، أو ما إلى ذلك ، أو باقية فى إطلاق اســم الــديار ، أو المنزل ، أو الدار عليها؛ وذلك رغبة منه فى خلودها ، فهو لا يحــب لهــا أن تنمحي أو تبلي ، بل يسعي لأن تظل فيها الحياة من أي نوع كانت -حتى ولو كانت حياة الوحوش فيها -تلبية لدواخل نفسه التى ترغب فى بقائها ، وهــذا هو السر وراء إطلاق الدار أو المنزل على تلــك الأطــلال - كمــا ســبق أن أوضحت - .

ويتضح لنا كذلك أن حديث عبيد عن الأطلال فى مقــدمات القصــائد لا

---

(١) الديوان ص ١٣٠-١٣١ .

علاقة له بما بعدها من غرض ، فقد تصدر حديثه عن الأطلال أغلب قصـــائده؛ التى تنوعت الأغراض فيها بين فخر ، ومدح ، ورثاء ، ووصف ، وحكمـــة ، الأمر الذى يجعلنا نعلل وقوفه على الأطلال بأنه تقليد فني دأب عليه الشـــعراء الأولون ، وأصبح سنة متبعة فيما بعد ، سار عليها عبيد وأمثاله وما نقلهـــابن قتيبة عن بعض الأدباء معللا لابتداء الشاعر بذكر الأطلال قد يكون مقبولا فـــى قصيدة المدح –كما يفهم من كلام ابن قتيبة – لكنه غير مستساغ فى غـــرض آخر كالهجاء مثلا أو الفخر ، حيث يقول ابن قتيبة : "ســـمعت بعـــض أهـــل الأدب يذكر أن مقصِّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكي وشكى وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ؛ ليجعل ذلـــك ســـببا لـــذكر أهلهـــا الظاعنين عنها ...ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجـــد ، وألـــم الفـــراق ، وفرط الصبابة ، والشوق ، ليميل نحوه القلوب ...لأن التشـــبيب قريـــب مـــن النفس ، لائط بالقلب ؛ لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ... فإذا علم منه أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق فرحل فى شعره ...فإذا علم أنه قد أوجب على صـــاحبه حـــق الرجاء ...وقرر عنده ما ناله من المكاره فى المسير ، بدأ فى المـــديح فبعثـــه على المكافأة وهزه على السماع "[١] .

وهذا التعليل الذى بسطه ابن قتيبة فيما سبق مرتبط بالحياة البدويـــة ، التى تقوم على الحل والترحال ، كما أنه يدل على خبرة ابـــن قتيبـــة بـــالنفس

---

(١) الشعر والشعراء ١/٨٠-٨١ -ت أحمد محمد شاكر – ط الثالثة .

البشرية ، ورغبتها فى الاستماع إلى أشعار الغزل ، ولكنه لا يفسر سر بناء القصيدة على هذا النمط الذى وصل إلينا ، اللهم إلا فى قصيدة المدح ، ويبقي التعليل بأن ابتداء الشاعر بالأطلال تقليد فني ، ولا يعني هذا أبداً أن الشاعر كان يفتعل الموقف أو أن شعر الأطلال خلو من الصدق العاطفيّ ، ليس الأمر كذلك ، ولكن ذكر الأطلال ، والوقوف عليها جاء استجابة لأحاسيس الشعراء الذاتية ، وخواطرهم النفسية ، وتفاعلهم مع البيئة البدوية الصحراوية -كما اتضح ذلك من خلال وقوف شاعرنا عبيد على الأطلال .

* * * * *

المبحث الثانى

الصحراء وما يتصل بها

الصحراء وطن العربي الكبير ، فهو يتنقل بين فلواتها المقفرة ، وهضابها البسيطة ، وأوديتها المعشوشبة ، وأحيائها العامرة ، وأطلالها الدارسة ، يتعرف على ما فيها من نبات وأشجار ، وغير ذلك مما ألفوه فيها ؛ فرسموا من مظاهر الطبيعة فى الصحراء أجمل الصور الشعرية ، التى تشهد بانطباع هذه المشاهد فى نفوسهم ، وتأثر وجداناتهم بها .

وشاعرنا عبيد بن الأبرص تنقل بين أماكن عدة فى بيئته البدوية ، ولاشك أن للمشاهد التى شاهدها فى هذه البيئة أثرها فى موضوعات شعره ، فقد وجدناه يذكر الصحراء ، ومسالكها ، والجبال المرتفعة إلى جانبها ، والرمال الجرداء ، والصخور ذات الألوان المختلفة ، والأودية ، والشعاب ، والسهول .وكثرت فى شعره أسماء الأماكن الصحراوية التى تنقل فيها ، وعبيد – وإن لم يخصص قصائد بعينها لهذه المظاهر الصحراوية – إلا أنه لا تكاد تخلو قصيدة منها " فأكثر الموضوعات فى ديوانه حيوان الصحراء ، ونباتها ، ورمالها ، وأنواؤها ، ومشاهد الحل والترحال والترحال "[١] .

ويري الدكتور شوقي ضيف أن عبيداً وامْرأ القيس كليهما ممن عنى بهذه المظاهر الطبيعية ، ووصف الأجواء الصحراوية ، بردها القارص ،

---

(١) تاريخ الأدب العربى (الأدب الجاهلى (قضاياه – أغراضه – أعلامه – فنونه) ص ٤٤٨ .

وحرها ، وهاجرتها ، والمطر ، وما يتبعه من خصب ، حيث يقــول " :وفــى معلقة امرئ القيس قطعة طويلة يصف فيها سيلاً عرما نزل فى مــواطن بنــي أسد بالقرب من تيماء ، ويتردد هذا الوصف فى شعره وشعر شاعرهم عبيد بن الأبرص " [١] ، ولا غرو فكل هذه الموصوفات من مظاهر البيئة التــى عــاش فيها كل من الشاعرين .

فهاهو ذا عبيد يكشف عن خبرته الواسعة بالصحراء ومسالكها ، ويشير إلى ما اعتراه من اضطراب قلبه ، وهو يجوب شعابها وطرقها التى لا يســلكها من الناس غيره فيقول :

فرُبَّ مــاءٍ وَرَدتُ آجِــنٍ ∴ سَبيلُهُ خــائِفٌ جَــديبُ

ريشُ الحَمامِ عَلى أَرجائِهِ ∴ لِلقَلبِ مِن خَوفِهِ وجيب[٢]

ثم يقول :إنه وصل إلى هذا الماء وتجاوزه ، وقد وصفه بأن آثار الطير (الحمام) منتشرة فى مياهه الراكدة وعلى جنباته ، ويبدو أنه فى مكان بعيــد ، لا يصل إليه المرتحلون غالبا ، وطريقه يبعث على الخوف ، ومع ذلك وصــل إليه عبيد وهو ما يزال نشيطا مُجِداً ، صاحبه فى هذه الرحلــة ناقتــه البدينــة السريعة :

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص ٢١٧ – دار المعارف بمصر ١٩٦١م .

(٢) آجن : متغير اللون ، سبيله خائف : أراد مجوفا ، وقد يقوم اسم الفاعل اسم المفعول ، الجديب : الذى لا شجر فيه أرجاله : نواحيه ، الوجيب : الخفقان . يراجع ديوانه ص ١٦ – تحقيق .د / حسين نصار .

قَطَعتُهُ غُدوَةً مُشيحاً ∴ وَصاحِبي بادِنٌ خبوب[١]

ولا غرابة أن يُلِمَّ بالشاعر الخوف فى مثل هذا المكان القصى ، الذى لا يرتاده مرتاد فمن " طباع الصحراء هدوؤها الدائم ، وصمتها المخيف ، ورتوبها الممتد ، والسكون الذى يملأ آفاقها وحشة وضجراً ، والرهبة الرابضة على فلواتها وكثبانها "[٢].

والصحراء – كما هو معلوم - فضاء واسع ممتد ، تحتاج فى قطعها إلى شجاعة ، وصبر ، ولقد اتخذ الشعراء من قدرتهم على جوبها ، والتنقل بين جنباتها معنى من معانى الفخر ، ولذلك كثيراً ما نرى عبيداً يفخر بأنه استطاع قطع الفيافي ، واجْتياز المفاوز الواسعة فى قوة وشجاعة – على الرغم من أن تلك الأمكنة مخيفة ؛ لما فيها من المخاطر -لكنه قطعها ، فهاهو يقول :[٣]

وَخَرقٍ تَصيحُ الهامُ فيهِ مَعَ الصَدى ∴ مَخوفٍ إِذا ما جَنَّهُ اللَيلُ مَرهوبِ

قَطَعتُ بِصَهباءِ السَراةِ شِمِلَّةٍ ∴ تَزِلُّ الوَلايا عَن جَوانِبِ مكروب[٤]

فهو يفخر بأنه خبير بالصحراء ، شجاع لا يهاب المخاطر ، فقد استطاع أن يجوب هذه الأرض الواسعة التى لا تسمع فيها إلا أصوات البوم ، وذلك

---

(١) قطعته : خلقته يعنى الماء ، ويروى : هبطته ، مشيحا : مجدا ، بادن : ناقة ذات بدن وجسم ، خبوب تخب فى سيرها والخبب نوع من السير .ينظر ديوانه ص ١٦-ت : د/ حسين نصار .

(٢) تاريخ الأدب العربى (الأدب الجاهلى) ص ٦٥ .

(٣) الديوان ص ٢٦-ت د/ حسين نصار .

(٤) الخرق : الأرض البعيدة مستوية أو غير مستوية ، والفلاة الواسعة سميت بذلك لانخراق الرياح فيها ، ومخترق الرياح : مهبها . لسان العرب (خرق) .

كناية عن اقفرارها ، وخلوها من الإنس ، فهى أمكنة تثير الخوف فى ساعات النهار فكيف إذا جن الليل ؟ ومع ذلك قطعها عبيد بناقته القوية السريعة .

ويلح على معاني الفخر هذه ، وهو أنه خبير بمسالك الصحراء ومفاوزها ، فيقول فى قصيدة أخرى حائية :

وَمَهمَهٍ مُقفِرِ الأَعلامِ مُنجَرِدٍ ∴ نائي المَناهِلِ جَدبِ القاعِ منساحِ[١]

أَجَزتُهُ بِعَلَنداةٍ مُذَكَّرَةٍ ∴ كَالعَيرِ مَوّارَةِ الضَبعَينِ مِمراحِ

فهو هنا قد جاز الصحراء الواسعة ، ذات الجبال المقفرة ، والتي ليست فيها علامات يهتدي بها المارة ، وفى ذلك دلالة على خبرته بالصحراء ، كما أن مياهها متباعدة بعضها عن بعض ، وفى ذلك دلالة على سعة الأمكنة التى تنقل فيها واجتازها بناقته الغليظة الشديدة .

ولعل ارتحال عبيد فى الصحارى الواسعة كان ديدنه ، ولذا فهو كثير الحديث عن سيره بناقته القوية فى تلك الصحارى المقفرة ، والطرق الوعرة ، والأرض الغليظة ، ففى قصيدة سينية يصف ناقته ، فيذكر سيرها فى صحراء واسعة ، لا نبات فيها ، ثم يذكر اتخاذها طريقا وحدها ، حيث تُبعِد عن طريقها الإبل البطيئة فى سيرها ، حتى لا تعطل سير ناقته فيقول : [٢]

---

(١) ديوانه ص ٣٩-ت : د/ حسين نصار . والمهمة : الصحراء الواسعة ، والأعلام . الجبال والحجارة وما يماثلها تعلم بها الطرق ، منجرد : قفر ، والمناهل : موارد المياه ، والمنساح : المتسع المنبسط .

(٢) ديوانه ص ٦٩ – ت – د/ حسين نصار . جهدن : تعبْنَ ، النطاق بقايا الماء ، صلقن :جرين، الديمومة : الصحراء الواسعة ، الإمليس : الفلاة ليس فيها نبات ، الأوائم :

وَإذا جُهِدنَ وَقَلَّ مَصُّ نِطافِــها ∴ وَصَــلَقــنَ في دَيمومَةٍ إمليسِ

تَنفي الأَواثِمَ عَن سَواءِ سَبيلِها ∴ شَرَكَ الأَحِزَّةِ وَهيَ غَيرُ شَموسِ

وهو كذلك كثير التجوال فى الفلوات والبيد ، تساعده على ذلــك ناقتــه القلوص ، نراه يخاطب الناقة قائلاً :(١)

دَنا مِنكِ تَجوابُ الفَلاةِ فَقَلِّصي ∴ بِما قَد طَباكِ رِعيَةٌ وَخُفوضُ

إذا جاوَزَت مِنها بِلاداً تَناوَلَت ∴ مَــهامِهَ بيداً بَينَهُنَّ عَريضُ

فهو يطلب من ناقته أن تجد فى السير ، فقد أوشكت على قطع الصحراء الواسعة؛ لِتَستريح وترعي ، وهي ناقة سريعة ما إن تجاوز بها بلداً حتى دخل فى مفاوز بعيدة ، وبيداء مختلفة ، وبين هذه المفاوز ، وتلــك البيــداء قفــار واسعة.

كما يتحدث عبيد عن الصحراء التى تتنوع ألوان الرمال فيها ، فيقــول فى قصيدة بناها على حرف الطاء(٢)

قَد نُكِّبت ماءَ جَزعٍ عَن شَمائِلِها ∴ في سَبسَبٍ مُقفِرٍ حُمرٌ بِهِ اللَّعَطُ

الإبل المبطنات فى السير، الشرك : الطريق، الأحزة جمع حزيز، وهو ما خشن من الأرض ، الشموس: النفور .

(١) ديوانه ص ٨ ، تجواب الفلاة : قطعها ، والفلاة : الصحراء الواسعة ، قلصي : جدى وأسرعى ، طباك : دعاك ، الرعية : الرعى ، الخفوض : الدعة والسكون ، المهامه : جمع مهمه وهو المفازة البعيدة ، والبيد : جميع بيداء وهى الفلاة ، عريض قفر عريض واسع .

(٢) ديوانه ص ٨٤ – ت د/ حسين نصار . واللعط : جمع لعطة وهى بقع فى السبسب من لون مختلف .

فهو هنا يذكر أرضاً قفراً بعيدة تختلف ألوان الرمال فيها حيث فيها اللُّغطُ ، وهي بقع يخالف لونها لون اللعط السبسب .ثم يذكر فى القصيدة نفسها ارتحال الشجعان من قومه فى صحراء بها آبار وجبال وغدران وأرض مستوية فيقول :

رَوضَ القَطا مِن جَنوبِ السِدرِ مِن خِيَمِ ∴ فَالمُختَبي فَأَجازوا الدَوَّ أَو هبطوا[١]

فهذه الصحراء التى سري فيها القوم تكثر فيها الأطواء ، وهي الآبار المطوية بالحجارة ، وذلك من جهة اليمين ، فقد كان الركب يسير وعن يمينه تلك الآبار حتى اقتربوا من الجبال أو توسطوها ، ثم يذكر بعض الأمكنة والمواضع التى مروا بها فى مراحل الرحلة ، فروض القطا ، وسدر ، من المواضع التى مر بها الركب ، كما مروا بجبل (خيم)، وغدير (المختبى) ، ومروا كذلك بأرض مستوية وهي (الدو) .

ومن رحلاته فى الصحراء تلك الرحلة التى ذكرها فى قصيدة ميمية يقول فيها : [٢]

هَذا وَدَوِيَّةٍ يَعيا الهُداةُ بِها ∴ ناءٍ مَسافَتُها كَالبُردِ دَيمومَه

جاوَزتُ مهمه يهماها بعيهمة ∴ عَيرانَةٍ كَعَلاةِ القَينِ مَعقومَه

أَرمي بِها عُرُضَ الدَوِّيُّ ضامِزَةً ∴ في ساعَةٍ تَبعَثُ الحِرباءَ مَسمومَه

---

(١) ديوانه ص ٨٥ – د/ حسين نصار .

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٩ – ت د/ حسين نصار ، والقصيدة فى مختارات شعراء العرب لابن الشجرى ص ٣٠٣ وما بعدها – ت / على محمد البجاوى .

فهذه الفلاة الواسعة التى تضل فيها الهداة طريقها سار فيهـا الشـاعر على هدى ، فهو يعرف مسالك الصحراء ودروبها ، وقد وصف هذه الفلاة بأنها جدُ واسعة (ناء مسافتها) ، وشبهها بالبُرد ؛ ليبين آثار الرياح فيها ، وأكـد على اتساعها واقفرارها فى البيتين الثانى والثالث ، فهى مهمـه يهمـاء ، أى فلاة واسعة ، لا ماء فيها ، ولا يُهتدى إلى طرقها ، وهي كـذلك (دَوِّيّ) أي أرض مستوية واسعة ، بعيدة الأطراف ، وسميت بذلك لدوى الصـوت الـذى يسمع فيها ، ويشير البيت الثالث إلى شجاعة الشاعر الذى سار فى هذه الفلاة، التى تفزع فيها الحيوانات ، كما يشير إلى صبره ، وقوة تحمله ، فقد سار فـى الهجير فى ساعة ليس فيها إلا ريح السموم الحارة (فى ساعة تبعث الحرباء مسمومهْ).

ومما يتصل بالصحراء ما ينبت فيها من نبات ، فقد تميـزت الصـحراء بأشجار ، ونباتات مختلفة ، تستطيع أن تتحمل قسوة البيئة الصحراوية ، مـن قلة الأمطار وقسوة الحرارة ، وما أكثر هذه الأشجار والنباتـات، التـى منهـا يتغذون كالنخيل ، والقمح ، والشعير وغيرها ، أو يتطيبـون بطيـب رائحتهـا كالخزامى ، والجثجاث ، والعرار وغيرها .

وقد ذكر شعراء البادية هذه النباتات ، ووقفوا أمامها ، غير أن عبيد بن الأبرص لم يقف كثيراً عند نباتات البادية – وإن شبه بكثير منها – وفى ذلـك

دليل على معرفته بتلك الأشجار ، فقد شبه بشجر البردى[١] ، والتوت[٢]،والنخيل [٣] ، كما ذكر النبع[٤] – كما سيأتي فى بيان مظاهر البادية فى التعبير والتصوير فى شعر عبيد – .

ومن النباتات التى ذكرها عبيد أيضا (الخزامى) وهو نبت زهره من أطيب الأزهار يقول فى قصيدة لامية من بحر الطويل :

كَأَنَّ الصَبا جاءَت بِريحِ لَطيمَةٍ ∴ مِنَ المِسكِ لا تُسطاعُ بِالثَمَنِ الغالي

وَريحِ خُزامى في مَذانِبِ رَوضَةٍ ∴ جَلا دِمنَها سارٍ مِنَ المُزنِ هَطّالِ

حيث يشبه حديث الأوانس بريح الشمال المحببة إلى العرب ، هذه الريح تحمل قطعة المسك التى لا يمكن شراؤها ، ولو بالثمن الغالي ، وتحمل كذلك ريح الخزامى ، التى نبتت فى الجداول ، التى تحمل الماء إلى الروض ، وقد سقتها أمطار منهمرة .

ومن النباتات التى رآها عبيد فى باديته : الأراك ، والغرقد ، وقد ذكرهما فى بيت له يتحدث فيه عن مهاة ترعى بولدها نبت الخمائل فيقول : [٥]

تُراعي بِهِ نَبتَ الخَمائِلِ بِالضُحى ∴ وَتَأوي بِهِ إِلى أَراكٍ وَغَرقَدِ

---

(١) راجع : الديوان ص ٦٨ .
(٢) السابق ص ٤٩ .
(٣) السابق ص ١٢٣ .
(٤) السابق ص ١٢٣ .
(٥) ديوانه ص ٥٣، والخمائل : جمع خميلة وهى الشجر الكثيف الملتف والأراك ، والغرقد نوع من الشجر .

أما غير ذلك من النباتات فلم أجد لعبيدٍ فيها شعراً ، مع أنه أشار إلى كثير منها مشبها بها ومما يتصل بالصحراء الحديث عن أجوائها ، رياحها ، وسحبها ، ورعودها ، وبروقها ، وأمطارها ، ولعبيد فى ذلك شعر رائع .

وللرياح فى الصحراء أنواع ، ولأنواعها أسماء ، وصفات ، ومهاب ، وهبوبها يقترن بالخير أو الشر ، فرياح الصبا ، أو القبول تهب من الشرق وهبوبها يقترن بمقدم الربيع وتضوُّعِ الأريج .وتهب أحيانا من الجنوب ، فتحمل المطر من اليمن إلى الحجاز فإذا ألقت ما تحمله من أمواه ، ملأت القيعان والغدران .وهناك ريح (السموم) تلك الريح المهلكة التى تلفح الوجوه فى الهاجرة ، وهناك ريح (الدبور) وهي ريح مشؤومة ، تبغضها العرب[١] .

فهاهو ذا عبيد يذكر رياح الجنوب فيقول : [٢]

هَبَّت جَنوبٌ بِأولاهُ وَمالَ بِهِ ∴ أَعجازُ مُزنٍ يَسُحُّ الماءَ دَلّاحِ

والضمير فى (بأُولاه) يعود على (قرقر) فى البيت السابق وهو قوله:

بُحّاً حَناجِرُها هُدلاً مَشافِرُها ∴ تُسيمُ أَولادَها في قَرقَرٍ ضاحي

والقرقر : الأرض المطمئنة اللينة ، والمعنى : أن هذه الرياح التى مهبها من الجنوب مرت على أول هذا المكان الذى ترعى فيه صغار النوق ، كما مر عليه السحاب الممطر ، كثير الماء .

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى (الأدب الجاهلى – قضاياه – أغراضه – أعلامه – فنونه) ص ٦٦- - ٦٧ (بتصرف يسير) .

(٢) ديوان عبيد ص ٣٦-ت : د/ حسين نصار .

ثم يلمح الشاعر أثر هذا السحاب الممطر ، الذى ذكَّرتــه بــه الــريح ؛ فيقول مصوراً ما أحدثه المطر فى مرتفعات المكان ومنخفضاته :

فمن بنجوته كمــن بمحــفلــه ∴ والمستكن كمن يمشى بقرواح

فَأَصبَحَ الرَوضُ وَالقيعانُ مُمرِعَةً ∴ مِــن بَينِ مُرتَفِقٍ فيهِ ومنطاح[1]

لقد عم المطر المرتفعات والمنخفضات ، كما أدرك من فــى البيــوت ، ومن هم خارج البيوت ، فامتلأت القيعان والغدران ، فكان بعضها من مــوارد الماء ؛ لينتفع القوم به فى صورة بركٍ ، وبعضها الآخر يجري ويسيل فى كــل جهة حيث لم يحبسه عن السيل شيء ، ولكن يبقي مع ذلك نفعه ، فهــو مــاء وقد قال الله تعالي { وجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } [2] ، فربما سوَّى الســيل طريقا وعراً ، فصار مهداً للسالكين .

ويبدو أن عبيد بن الأبرص مثل غيره من شعراء البوادى يسعده كثيراً نزول المطر ، فيتغنى جزلا بنزوله ، أو بما هو من مقدماته كالبرق ، والرعد ، وفى قصيدته الحائية – التى اجتزأنا منها الصور السابقة - صور تعبــر عــن فرحته بالبرق الذى بات يرقبه ، ويصور السحاب الذى كان يعترض الأفق بأنه مضيء مثل ضوء الصبح ، ثم يعبر عن دنــو الســحاب مــن الأرض وعــن استبشاره به ومدى حاجته إليه ، فهو يرغب فى أن يمسك به ، بــل يصــافحه

---

(١) السابق ص ٣٦-٣٧ ، النجوة : ما ارتفع من الأرض ، والمحفل : مستقر الأرض ، المستكن : الذى فى بيته ، القرواح : الأرض المستوية الظاهرة ، المرتفق : الماء الراكد ، طاح : سائل لم يكن له ما يحبسه فيسأل .

(٢) من الآية رقم (٣٠) من سورة الأنبياء .

فيقول :

يا مَن لِبَرقٍ أَبيتُ اللَيلَ أَرقُبُــهُ ∴ مِن عارِضٍ كَبَياضِ الصُبحِ لَمّاحِ

دانٍ مُسِفٍّ فُوَيقَ الأَرضِ هَيدَبُهُ ∴ يَكــادُ يَــدفَعُهُ مَن قامَ بالراح[١]

ولك أن تتمثل الشاعر قابعا فى خيمة ، والســحابة الكثيفــة فــى أول المخاض ، والبرق يضيئها بين الحين والحين بخيوط تشق بطنهــا المغلــق ، وذيول السحابة المتدلية فى السماء تكاد تلامس الأرض ، حتــى إن الإنســان ليستطيع أن يتعلق بذوائبها [٢] .

ولم تكن البيئة البدوية التى عاش فيها عبيد صحارى وفلوات ومفــاوز فحسب ، ففى شعره ما يدل على أن فيها رياضاً ، وإن كانــت قليلــة ، لأننــى وجدته يذكر رياضا غمرها الثلج ، وأذاب ثلجها فصل الربيع ، وتتــابع عليهــا مطره ، فاخضر نباتها ، وأينعت ثمارها ، وزهت تربتهــا ، وفــاح أريجهــا ، فيقول: [٣]

في رَوضَةٍ ثَلَجَ الرَبيعُ قَرارَها ∴ مَــولِيَّةٍ لَــم يَستَطِعــها الرُوَّدُ

وَبَدا لِكَوكَبِها صَعيدٌ مِثلُ ما ∴ ذريحَ العَبيرُ عَلى المَلابِ الأَصفَدُ

فمن مظاهر البادية التى انفعل بها بعد ما متع ناظيره بمجاليهــا هــذه

---

(١) ديوانه ص ٣٤ وهذا البيت منسوب فى بعض المصادر لأوس بن حجر .
(٢) تاريخ الأدب العربى (الأدب الجاهلى – قضاياه – أغراضه – أعلامه – فنونه) ص ٤٥٠.
(٣) ديوانه ص ٤٤ ، ثلج الربيع : أنزل فيها الثلج ، قرارها : وسطها ، مولية : أصابها المطر الثانى ، والمطر الأول هو الرسمى .

الروضة ، التى تتابع عليها المطر بعد الثلج ، حتى أصبحت وحلة فلم يستطع الرواد ارتيادها ، وكذلك فهى مخضرة طيبة .

ولعل المعاني التى ألح عليها عبيد فى حديثه عن المطر والبرق والرعد ليست بغريبة على شاعر بدوى المولد والمنشأ ، فحبه للمطر ، وترقبه لنزوله ، وسهره لانتظاره ، وبيان أثر المطر فى تلك البوادى كل ذلك يدور بخلد الشعراء الذين يقيمون فى البادية ، حيث ترتبط حياتهم وحياة حيواناتهم بهطول الأمطار"ومهما يدمر السيل من منازل ، ويقتلع من نخيل ، فإنه ماء ، ومن الماء كل شيء حي .فمتى سكن غضبه ، ووجد فى الشعاب والأباطح مقاره ، قر وتطامن ، فإذا هو غدران تحفظ الحياة ، وموارد يؤمها الظماء وإذا ما انداح الماء فى الصحراء انشق رملها الروى عن أصناف النبات [١] ، ولذلك تبدو عناية عبيد بوصف البرق ، والرعد ، والمطر ، والعواصف واضحة ، فها هو يصف عاصفة وما تلاها من تجمع السحب ، وهبوب الرياح ، واشتعال البروق ، وانصباب الماء ، فيقول:

سقى الرباب مجلجل الأ ∴ كناف لماح بروقه
جَونٌ تُكَركِرُهُ الصَبا ∴ وَهناً وتَمريهِ خَريقُه
مَريَ العَسيفِ عِشارَهُ ∴ حَتّى إذا دَرَّت عُروقُه
وَدَنا يُضيءُ ربابُهُ ∴ غاباً يُضَرِّمُهُ حَريقُه
حَتّى إذا ما ذَرعُهُ ∴ بالماءِ ضاقَ فَما يُطيقُه

(١) تاريخ الأدب العربى (الأدب الجاهلى – قضاياه – أغراضه – أعلامه) ص ٦٨ .

هَبَّــت لَــهُ مِـــن خَلفِـــهِ ∴ ريـــحٌ يَمـــانِيَةٌ تَســـوقُه

حَلَّـــت عَزالِيَـــهُ الجَنـــو ∴ بُ فَـثَجَّ واهِيَـةً خروقــه [١]

فهو يصور هنا الرياح مشتبكة مع السحب ، تلاينها حينا ، وتشتد عليها حينا ، حتى تضيق ذرعها بالماء فتلقيه ، ويبدو الشاعر أشـد إعجابـا بهـذه المعركة [٢] .

وحق لشعراء البوادي – ومنهم عبيد – أن يعبروا عن سعادتهم بالمطر واستبشارهم بنزوله.

* * * * *

(١) الديوان ص ٨٩-٩٠ ، الرباب جبل بين المدينة وفيد ، مجلجل مصوت ، يريد السحاب ذا الرعد ، الأكناف : الجوانب ، لماح : لماع ، والحوت : الأسود ، تكر كره : ترددة ضاق ذرعه : ضعفت طاقته ، بمانية : تهب من قبل اليمن ، العزالى : جمع عزلاء وهو مصب الماء من المزادة ، الجنوب ريح الجنوب ، ثبج : سال وهصب ، واهية : ضعيفة منشقة .

(٢) شعر الطبيعة فى الأدب العربى – د/ سيد نوفل ص ٦٥ .

المبحث الثالث

الناقة فى شعر عبيد

حظيت الناقة بنصيب موفور من الشعر الجاهلى ؛ فلا غرابة أن نجد أكثرهم يجيد وصفها ، فهى مطيتهم التى يرتحلون عليها فى تلك الصحارى وهاتيك القفار ، وما من شاعر بدوى إلا وله شعر فى ناقته بوصفها واحدة من مظاهر البادية ، ولقد صحب عبيد ناقته طويلا ، فهى مركبه فى الصحراء ، يضرب بها الفلوات الواسعة ، ويجوب بها أنحاء الصحراء ، كما أنها صاحبه الملازم له فى رحلاته ، وهي بإيجاز –ناقة مشرفة الحارك ، متوسطة السن ، قد استراحت من الحمل ، كأنما هي حمار بجانبه آثار العض ، أو ثور يرعى مكانا خصيبا [١] ، يقول فى قصيدة بائية :

قَطَّعتُهُ غُدوَةً مُشيحاً ∴ وَصاحِبي بادِنٌ خَبوبُ

عَيرانَةٌ مُؤجَدٌ فَقارُها ∴ كَأَنَّ حارِكَها كَثيبُ

أَخلَفَ ما بازِلاً سَديسُها ∴ لاحِقَّةٌ هِيَ وَلا نَيوبُ

كَأَنَّها مِن حَميرِ غابٍ ∴ جَونٌ بِصَفحَتِهِ نُدوبُ

أَو شَبَبٌ يَحتفِرُ الرُخامى ∴ تَلُفُّهُ شَمأَلٌ هَبُوبُ [٢]

---

(١) شعر الطبيعة فى الأدب العربى - ص ٦٦ .

(٢) الديوان ص ١٦-١٧-ت – د/ حسين نصار والضمير قطعته للماء ، وقطعته خلفته ، مشيحا مجدا ، وصاحبى أى ناقتى ، بادن : ذات بدن وجسم ، خبوب تخب فى سيرها من الخبب وهو نوع من السير ، عيرانة من العير وهو الحمار الوحشى ، مؤجد : موثقة الخلق ، الفقار : خرز الظهر ، الحار :

فعبيد هنا يصف ناقته بالقوة والمتانة ، وبأنها فى سن متوسطة ، فليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ، كما يصفها بأنها نشيطة وسريعة ، ولها فنون فى سيرها ، فهى لا تسير على وتيرة واحدة ، كما أنها من النوق المرتفعة السمينة ، وهكذا يُلِم عبيد فى هذه الأبيات بمجموعة من الصفات المستحسنة فى ناقته ، فيركز على سرعتها وخفتها .وقد قطع بها رحلة طويلة فى الصحراء ، ثم يصف بعض أجزاء جسمها ، وبخاصة ما بين سنامها وعنقها ، فيجعلها كالكثيب بعد أن يذكر أنها وثيقة الأعضاء مشدودتها.

ولما كانت الصحراء مناخ الناقة ومسراها ، ومبدأ سيرها ومنتهاه فإن الشاعر لا يصور ناقته فى أغلب الأحيان معزولة عما حولها ، بل يحيط صورتها بصور الطبيعة ، فعن يمينها أو يسارها كثبان ، ووراءها حصى يتناثر من مناسمها ، وأمامها حمر وحشية متوثبة ، وينتزع الشاعر صور الشبه لناقته من عناصر الطبيعية حولها فإذا هي كالحمار الوحشي ، أو كالثور، أو كالفرس.

فلا يغرو أن يكون تشبيه عبيد لناقته بالحمار الوحشي فى القوة أثراً من آثار حياة البادية ، فهو يقول فى قصيدة حائية :أنه أجاز بناقته صحراء واسعة

ما انحدر من السنام والاتفع عن العنق ، الكثيب : الرملة اللينة ليست بالعظيمة ، أخلق : أنى عليها سنة بعد ما بزلت ، السديس : الست التى تأتى بعد سبع سنين للبعير ، والحقة : التى أتى عليها من نتاجها أربع سنين ، والنيوب : التى عليها سبع عشرة سنة ، غاب : موضع ، جون : البيض والأسود ، ندوب : آثار العض من الحمير والسبب : الثور الذى قد تم شبابه وسنه يحتفر برتعى ، الرخامى : نبت تلفه : تأتيه من كل وجه .

مقفرة ، ذات جبال وأحجار :

أجزته بعلنداة مُذَكّرة ∴ كالعَيْر موارة الضبعين ممراح[١]

فهو هناك لا يعرض لجسم الناقة ، ولا لشكلها ، وإنما يركز على سرعتها ، وقوتها ، مستخلصاً القوة من وصفها بأنها)مذكرة (، وبتشبيهها بالحمار الوحشي ، ومستخلصا السرعة من وصفها بأنها (موَّارة)، وأنها (ممراح) فالبيت يرسم صورة لقوة الناقة وسرعتها ونشاطها.

وأحيانا نرى عبيداً يشبه ناقته بالثور فى القوة بعد أن يقف عند شكلها ، فيصفها بأنها ذات لحم وشحم ، فيقول مظهراً نشاط ناقته وقوتها :

فَاقطَع لُبانَتَهُم بِذاتِ بُرايَةٍ ∴ أُجُدٍ إِذا وَنَتِ الرِكابُ تَزَيَّدُ

وكَأَنَّ أَقتادي تَضَمَّنَ نِسعَها ∴ مِن وَحشِ أورالٍ هَبيطٌ مُفرَدُ

باتَت عَلَيهِ لَيلَةٌ رَجَبِيَّةٌ ∴ نَصباً تَسُحُّ الماءَ أَو هِيَ أَسوَدُ

يَنفي بِأَطرافِ الأَلاءِ شَفيفَها ∴ فَغَدا وَكُلُّ خَصيلِ عُضوٍ يُرعَدُ [٢]

فناقته هنا وسيلة تسلية له ، يمتطيها فيرتاح فؤاده من ذلك الحب الذى أرقه ، وهنا تبرز الناقة التى قطع بها تغزله ، فإذا هي قوية ذات لحم وشحم ، موثقة الخلق ، لا تضعف ولا تنى فى سيرها ، بل إذا ونت الركائب فإن ناقته

---

(١) الديوان ص ٣٩- العلنداة : الناقة الغليظة الشديدة ، المذكرة : القوية كالذكر ، العير : الحمار الوحشى ، موارة : سهلة السير سريعة ، الضبع العضد أو الإبط ، المراح : السريعة النشطة المختالة .

(٢) الديوان ص ٤٣-٤٤ .

تزيد فى سرعتها ، وكأن هذه الناقة فى سرعتها ونشاطها ثور منفرد يهبط من مكان إلى مكان ، وكلما انفرد الثور عن القطيع كان أسرع وليس ذلك فحسب ، بل يتضح التشبيه أكثر عندما يبرز هيئة المشبه به ، فالثور أفرد عن القطيع ، ويهبط من مكان إلى آخر ، وفى ليلة باردة ممطرة ؛ فينتحي الثور ليتقي البرد والمطر بأطراف الشجر؛ فيكون فى هذه الحال أشد سرعة .ودليل ذلك أن أعضاءه كلها ترتعد ، وكل ذلك ليؤكد نشاط ناقته ، فهى لنشاطها لا تكاد تستقر أو تهدأ .

والناقة - دائما – ملاذ عبيد حين تعتريه الهموم والأحزان ، فيرتحل عليها ليتناسى الحب الذى أضناه ، يقول فى قصيدة سينية ، يستهلها ببكاء الأطلال ، ثم يتحدث عن صاحبته فاطمة ، ثم ينتقل إلى ناقته لتسريه عن حب فاطمة :

أَفَلا تُناسي حُبَّها بِجُلالَةٍ ∴ وَجناءَ كَالأُجُمِ المَطينِ وَلوسِ

رَفَعَ المَرارُ مِنَ الرَبيعِ سَنامَها ∴ فَنَوَت وَأَردَفَ نابها لِسَديسِ

فَكَأَنَّما تَحنو إِذا ما أُرسِلَت ∴ عودَ العِضاهِ وَرقَّه بِفُؤوسِ

أَفنَيتُ بَهجَتَها وفضل سَنامها ∴ بِالرَحلِ بَعدَ مَخيلَةٍ وشريس [1]

---

(١) الديوان ص ٦٨-٦٩ ، الجلالة الناقة الضخمة ، الوجناء : الكثيرة لحم الوجنات، الأجم : الحصن ، المطين : المطلى بالطين ، الولوس : السريعة ، المرار : شجر تأكل الإبل ، نوت الناقة : سمنت ، السديس : السن التى تبزغ للناقة فى سن السادسة ، والعضاة : شجر له شوك ، المخيلة الاختيال ، الشريس : الشراسة وسوء الخلق .

فهو يحاول أن يصرف قلبه عن حب فاطمة ، ويسلوها مستعيضا عن ذلك الحب بناقته ، التى أعطاها الحظ الأوفى من الصفات المستحسنة فى النوق ، كما وصف صاحبته فاطمة فأوفي وصفها فى بيتين سبقا هذه الأبيات .إنه يصور أعضاء ناقته وأجزاء جسمها من الوجنتين إلى السنام ، ثم يعرج على طعامها ، وسنها ، فهى ناقة ضخمة ، كثيرة لحم الوجنات ، وهى أيضاً قوية صلبة ، تشبه البيت المرتفع المطلى بالطين ، وهذا التشبيه مظهر من مظاهر البداوة العريقة . وهي كذلك ناقة سريعة ، قد طعمت شجر المرار ؛ فسمنت ، وارتفع سنامها ، وهي متوسطة السن ، فى السادسة ، أو السابعة من العمر ، وهى كذلك لا تكل الارتحال ، لكنه أفنى بهجتها وضخامة سنامها بكثرة ترحاله .

ويبدو أن الشاعر هنا قد تناقض مع نفسه فى وصف ناقته فقد كانت فى الأبيات السابقة :

..... ذات براية ∴ أجد إذا ونت الركات تزيد

وكانت فى هذه الأبيات (كالأجن المطين) ، وقد رع المرار سنامها) ، وقت الربيع ، أى قوية ، ذات لحم وشحم ، لا تكل ، ولا يبدو عليها الوهن من كثرة الارتحال ، فى الوقت الذى تضعف فيه الركائب ، فإذا به هنا يصورها لنا وقد أفنى بهجتها ، وفضل سنامها بكثرة ارتحاله عليها ، حتى لكأننا نظن أنها ناقة أخرى غير التى وصفها من قبل ، وهذا تناقض واضح فى الأفكار .

ومن جميل حديثه عن الناقة ما جاء فى قصيدة له بناها على حرف الضاد ، يشخص فيها الناقة ، ويضفي عليها من صفات الإنسان ، ويحاورها ، فيقول : (١)

وَحَنَّت قَلوصي بَعدَ وَهنٍ وَهاجَها ∴ مَعَ الشَوقِ يَوماً بِالحِجازِ وَميضُ(٢)

فَقُلتُ لَها : لا تَضجَري إِنَّ مَنزِلاً ∴ نَأَتني بِهِ هِندٌ إِلَيَّ بَغيضُ

دَنا مِنكِ تَجوابُ الفَلاةِ فَقَلِّصي ∴ بِما قَد طَباكِ رِعيَةٌ وَخُفوضُ(٣)

إِذا جاوَزَت مِنها بِلاداً تَناوَلَت ∴ مَهامِهَ بيداً بَينَهُنَّ عَريضُ

وَقَد ماجَتِ الأَنساعُ وَاِستَأخَرَت بِها ∴ مَعَ الغَرزِ أَحناءٌ لَهُنَّ دُحوضُ (٤)

فهو يجعل لناقته إحساسا ، فإذا هى تحن وتشتاق ، وهو مثلها يحن ويشتاق إلى ديار أحبته ، ويحاول أن يصبرها ، فهو ليس بأقل منها شوقا .

لقد أصبح المنزل الذى نأت عنه هند بغيضا إليه ، ويهون على ناقته مشاق الطريق ، فيقول لها :لقد اقترب قطع الفلاة فأسرعى ، كما يصور الفلوات والمهامه التى قطعتها ناقته ، وهى مفازات بعيدة ، وقفار واسعة ، ثم يعود إلى وصف الناقة حيث تضمر لطول السفر ؛ فتضطرب الأنساع عليها ،

---

(١) الديوان ص ٨٠ .
(٢) القَلوص من الإبل : الشابة ، الوهن من الليل : نحو منتصفه ، الوميض : اللمعان (٢).
(٣) تجواب الفلاة : قطعها ، والفلاة : الصحراء الواسعة ، قلصى : حدى وأسرعى .
(٤) الديوان ص ٨٠ ، وماج : اضطرب ، والأنساع : جمع نسع ، وهو سير أو حبل عريض طويل تشد به الرحال ، الغرز : ركاب الرحل من جلد ، الأحناء : جمع حنو وهو محل الاعوجاج من الناقة ، الدحوض : الزلق .

ولا يستقر الرحل على سنامها .

وهكذا فشاعرنا لا يصور الناقة معزولة عن غيرها من مفردات البادية ، فهى وسيلته لقطع الفلوات ، والقفار ، والمهامه ، وطعامها حشائش البادية التى تنمو إثر هطول الأمطار ، وعلى جوانب الآبار والجبال ، انظر إليه وهو يصور الإبل :

وَالعيسُ مُدبِرَةٌ تَهوي بِأَركُبِها ∴ كَأَنَّهُنَّ نَعامٌ نُفَّرٌ مُعُطُ
قد نكِّبَتْ ماءَ جَزعٍ عَن شَمائِلِها ∴ في سَبسَبٍ مُقفِرٍ حُمرٌ بِهِ اللَعَطُ
تَرى لَهُنَّ عَزيفاً في مَواثِبِهِ ∴ إِذا هُمُ لَبِثوا الأَمات وَاِفتَرَطوا
وَتُصبِحُ الحقب حَسرى في مَناهِلِها ∴ وَالكُدرُ قَد قَصُرَت عَن وِردِها الوُقُطُ
وَعَن أَيامِنِها الأَطواءُ مُصعِدَةٌ ∴ قَد شارَفوا فَرَجَ الأَوتادِ أَو وَسَطوا
رَوضَ القَطا فجَنوبِ السِدرِ مِن خِيَمِ ∴ فَالمُختَبي فَأَجازوا الدَوَّ أَو هَبَطوا[1]

ويبدو أن ناقته هذه ناقة الأسفار ، فهى صاحبته إذا اعترته الهموم والأحزان ، أو استبد به الشوق ، يقول بعد أن بكي أطلال سليمى ، واصفا سلوانه وارتحاله على الناقة :

سَراةَ الضُحى حَتّى إِذا ما عَمايَتي ∴ تَجَلَّت كَسَوتُ الرَحلَ وَجناءَ تامِكا
كَأَنَّ قُتودي فَوقَ جَأبٍ مُطَرَّدٍ ∴ رَأى عانَةً تَهوي فَوَلّى مُواشِكا [2]

---

(١) الديوان ص ٨٤-٨٥ .
(٢) الديوان ص ٩٢ .

ويقول فى قصيدة أخرى بعد أن بكى أطلال سليمى أيضا :

لَــولا تُسَلّيكَ جُــمــالِيّــَةٌ ∴ أَدماءُ دامٍ خُفُّها بازِلُ

حَرفٌ كَأَنَّ الرَحلَ مِنها عَلى ∴ ذي عانَةٍ مَرتَعُهُ عاقِلُ [١]

ويقول فى قصيدة أخرى يبكى فيها أطلال هند :

وَقَد أُسَلّي هُمومي حينَ تَحــضُرُني ∴ بِجَسرَةٍ كَعَلاةِ القَينِ شِــمــلالِ

زَيّــافَةٍ بِقُتــودِ الرَحــــلِ نــاجِيَةٍ ∴ تَفري الهَجــيرَ بِتَبغيلٍ وَإِرقالِ

مَقذوفَةٍ بِلَكيكِ اللَحمِ عَن عُــرُضٍ ∴ كَمُــفــرَدٍ وَحَدٍ بِالجَوِّ ذَيّالِ[٢]

وهو – دائما – يصرح بأنها صاحبته التى يختــرق بهــا الفيــافى ، والبيداء ، والأماكن المجهولة ، ويبدو أن من مظاهر إعجابــه بناقتــه كثــرة أسفاره وارتحاله عليها ، ولذلك سلح على قوتها وجاسارتها ، فيقول مفتخــرا بشجاعته وخبرته بالصحراء :

يا ناقَةً ما كَسَوتُها الرَحلَ وَال ∴ أَنساعَ رَهْبــاً كَأَنَّها جَمَلُ

تَخــتَرِقُ البيــدَ وَالفَيافِيَ إِذ ∴ لاحَ سُهَيلٌ كَأَنَّــهُ قَــبَلُ

وَيلُ اُمِّها صاحِبــاً يُصاحِبُها ∴ مُعتَسِفُ الأَرضِ مُقفِرٌ جَهِلُ[٣]

وكثيراً ما يكون حديثه عن ناقته من باب الفخر بذاته ، كما فى الأبيات

---

(١) الديوان ص ٩٨.
(٢) السابق ص ١٠٢ .
(٣) السابق ص ٩٦ .

السابقة ، وكما فى قصيدة اللامية التى يقول فيها :

وَلَقَد أَقطَعُ السَباسِبَ وَالشُهـــ ∴ بَ عَلى الصَيعَرِيَّةِ الشِملالِ

عَنتَـــريسٍ كَأَنَّها ذو وُشُـــومٍ ∴ أَحرَجَتهُ بِالجَوِّ إِحدى اللَيالي

ثُمَّ أَبري نِحاضَـــها فَـــتَراهـــا ∴ ضامـــراً بَعدَ بُدنِها كَالهِلالِ[1]

وهكذا كان للناقة فى شعر عبيد نصيب كبير يكشف بوضوح عـــن أثـــر حياة البادية فى موضوعات شعره ، فحياة البدو مرتبطة ارتباطا وثيقا بحيـــوان البادية لما له من منافع ، وأقدر الحيوانات على القيام بهذه المنافع الإبل ، ولذا كثر حديث عبيد عنها ، متمثلة فى ناقته التى رسم لها صوراً متعددة ، منفردة، أو مع غيرها من النوق ، يمتطيها ؛ ليسرى عن نفسه إذا أحاطت به الهموم ، وتكالبت عليه الأحزان ، فيصف الناقة وصفا دقيقا ، يتنـــاول أجـــزاء جســـمها المختلفة ، كما يصف حركتها ، وهيئتها ، وسرعتها ، وهو فى هذا الوصف لا يتناول ناقته مجردة عما حولها من أشياء البادية وعناصر الطبيعة فيها ، مـــن جبال وأودية ، وفجاج ، وقفار ، وآبار ، وغير ذلك من مظاهر البيئة البدوية .

---

(١) السابق ص ١١٠-١١١ .

المبحث الرابع
الخيل فى شعر عبيد

لم تكن الخيل فى حياة العرب الجاهليين بأقل مكانة من الناقة ، فهى كالناقة تماماً فى الأهمية ، إذ لا يمكن التنقل بين أرجاء صحرائهم البسيطة إلا على ظهر الناقة أو الفرس ، فهما " الركوبة والرفيقة والأنيسة فى السير والسرى" (١) .

ولقد أسبغ الشعراء على حيواناتهم الحركة والنشاط ، وصوروها صوراً حية نابضة ، وركزوا على وصف أعضائها ، وبيان شكلها ؛ للدلالة على قوة تحملها ، وصبرها على الشدائد فى صحرائهم ..وفروسية العربى مظهر هام وبارز من مظاهر الحياة ،والفخر بها من عادات كل فارس قدير .

وإذا كان عبيد قد أولى الناقة عناية فائقة ، فوصفها متحركة وساكنة ، وأضفى عليها عنصرى النشاط والحركة ، ورسم هيئتها وشكل أعضائها .فإنه عنى بإبراز صورة فرسه فى مواقف عدة تدل على ما يحبه فى الفرس من صفات ، وما تتطلبه حياته البدوية – التى من سماتها الإغارة – من قوة ونشاط .

فمن الصفات التى ركز عليها فى فرسه السرعة مع الخفة حيث يشبهه

---

(١) التجديد فى وصف الطبيعة بين أبى تمام والمتنبى ص ١٠٥ – د/ نسيمه الغيث – ط الأولى سنة ١٩٨٨م .

بالذئب تارة فيقول : [١]

وَطِمِرَّةٍ كَالسِّيدِ يَعلو فَوقَها ∴ ضِرغامَةٌ عَبلُ المَناكِبِ أَغلَبُ

فهو يتحدث عن فرسه التى كانت مطيته أثناء إغارة بنى جديلة على بني أسد[٢]، فهى فرس الحرب التى ينبغى أن تكون كذلك ، وفارسها كالأسد الضخم .

وتارة يركز على شكل الفرس أولا ، ثم يذكر بعد ذلك سرعتها ونشاطها، فهى مشرفة ، غليظة ، طويلة الظهر ، واسعة الجبهة ، كما أنها ناعمة ملساء :

فَذاكَ عَصرٌ وَقَد أَراني ∴ تَحمِلُني نَهدَةٌ سُرحوبُ

مُضَبَّرٌ خَلقُها تَضبيراً ∴ يَنشَقُّ عَن وَجهِها السَبيبُ

زَيتِيَّةٌ ناعِمٌ عُروقُها ∴ وَلَيِّنٌ أَسرُها رَحيبُ [٣]

ثم ينتقل إلى سرعتها فيشبهها بالعقاب :

كَأَنَّها لِقوَةٌ طَلوبُ ∴ تُحَنُ في وَكرِها القُلوبُ

باتَت عَلى إِرَمٍ رابئةً ∴ كَأَنَّها شَيخَةٌ رَقوبُ

فَأَصبَحَت في غَداةِ قِرَّةٍ ∴ يَسقُطُ عَن ريشِها الضَريبُ

فَأَبصَرَت ثَعلَباً مِن ساعَةٍ ∴ وَدونَهُ سَبسَبٌ جَديبُ

---

(١) ديوان ص ٥ – الطمرة : الفرس الأنثى الكريمة السريعة ، السيه : الذئب .
(٢) انظر الديوان ص ٣ – تحقيق د/ حسين نصار .
(٣) الديوان ص ١٧-١٨ .

فَنَفَضَـــت ريشَـــها وَاِنتَفَضَـــت ∴ وَهـــيَ مِـــن نَهضَـــةٍ قَريـــبُ
فَاِشـــتالَ وَاِرتـــاعَ مِـــن حَسيسِـــها ∴ وَفِعلَـــهُ يَفعَـــلُ المَـــذؤوبُ
فَنَهَضَـــت نَحـــوَهُ حَثيثَـــةً ∴ وَحَـــرَدَت حَـــردَةً تَســـيبُ
فَـــدبَّ مِـــن رأيِّهـــا دَبيبـــاً ∴ وَالعَـــينُ حِملاقُهـــا مَقلـــوبُ
فَأَدرَكَتـــــــهُ فَطَرَّحَتـــــــهُ ∴ وَالصَيدُ مِن تَحتِهـــا مَكـــروبُ (١)

فهو يشبه فرسه فى البداية – بالعقاب ، ثم يطغى المشبه بـه علـى المشبه ، فيأخذ فى ذكر العقاب وما حدث له مع الثعلب من صراع .

وواضح فى الأبيات التتابع فى الأفعـال ، التـى تُـومئ إلـى الحركـة المستمرة لهذه الفرس ، التى كاد ينسينا إياها؛ حتى لنرى الصراع بين العقاب والثعلب إلى نهاية المعركة ، فالعقاب كعجوز ثكلى باتت على ربـوة ، يمنعهـا الحزن من الطعام والشراب ، كما أنها فى ليلة باردة ، بل شـديدة البـرودة ، فالبرد يسقط على جلدها الندى والجليد ، وبينما هي كذلك أبصرت ثعلبا يعـدو سريعا ، فى سبسب قفر ، فأسرعت تطارده ، فارتاع الثعلب ، وأخذ يتخبط فـى سيره حتى نهضت إليه حثيثاً فلحقته ، وانقضت عليه بعـد أن انقلـب بيـاض عينيه لاضطرابه ، ثم طرحته على الأرض ، والثعلب تحتها مكروب ...إلى نهاية المعركة التى عرضها فى صورة قصة - كما ترى – .

وهكذا ينقلنا الشاعر إلى صراع حقيقي " حتى ليبصر الإنسان بالمعركة

---

(١) الديوان ص ١٨-٢٠ – تح .د/ حسين نصار .

ناشبة أمامه ، ويكمل فيه معني القص والتتبع حتى يخال القارئُ الشاعرَ قصاصاً .وبقدر ما أجاد فى تصوير قوة الصائد وبطشه ، وعنف حركاته وسرعتها ، أجاد فى تصوير ضعف الصيد واضطرابه وتخاذله وفزعه ، كما أن فيه شيئا آخر جديراً بالتأمل ؛ هو التمثيل لبطش العقاب وغريزة الفتك المركبة فيه ، حتى إذا رأى فريسته استيقظ من خموله ، وهب من ضعفه ، وثارت فى نفسه كل معانى العدوان ، ويقابله التمثيل بضعف الصيد واضطرابه ، واستسلامه لرحمة القدر يصرفه كيف يشاء ، فاقد الإدارة ، لا يبدى مقاومة ولا حراكا ، ولعل هذا تمثيل للإنسان القوي يفتك بالضعيف " [١] .

وتارة أخرى نجد لعبيد أشعاراً يصف فيها خيول قومه فى الحرب ؛ وذلك فى مجال الفخر بقبيلته ، وتعداد مفاخرها ، فيذكر خيولهم ويصفها بأنها قوية الظهر طائعة لراكبها ، مسرعات كأنها كلاب الصيد الجائعة حين ترسل إلى فريستها ، كما يشير إلى ضمورها فيقول :

وَإذا الخَيلُ شَمَّرَت في سَنا الحَر ب وَصارَ الغُبارُ فَوقَ الذُؤابِ ∴

وَاِستَجارَت بِنا الخُيولُ عِجالاً مُثقَلاتِ المُتونِ وَالأَصلابِ ∴

مُصغِياتِ الخُدودِ شُعثَ النَواصي في شَماطيطِ غارَةٍ أَسرابِ ∴

مُسرِعاتٍ كَأَنَّهُنَّ ضِراءٌ سَمِعَت صَوتَ هاتِفٍ كَلابِ ∴

---

(١) شعر الطبيعة فى الأدب العربى – د/ سيد نوفل – دار المعارف – ط الثانية – سنة ١٩٧٨م .

لاحِقاتِ البُطونِ يَصهِلنَ فَخــراً ∴ قَد حَوَينَ النِهابَ بَعدَ النِهابِ [١]

فهو فى الأبيات السابقة يركز على شكل وهيئة هذه الخيول ، كما يركز أيضا على قوتها وسرعتها ، ويستخلص هذه الصفات لها أثناء الحرب والإغارة

وفى أحيان كثيرة يركز على عراقة خيول أحبته ويصفها بالكرم ، كقوله يذكر ديارهم ، وما أصابها من الوحشة :

أَوحَشَت بَعدَ ضُــمَّرٍ كَالسَعالي ∴ مِن بَناتِ الوَجيهِ أَو حَلّابِ

فالخيول الضُمَّر (قليلة اللحم) فيما بين الفخذين إلى البطن مستحســنةٌ عند العرب ، والوجيه :فرس معروف عند العرب بكرم أصله لبنى غِنىّ ، وكذا حلاَّب :فرس لبنى تغلب كريم أيضا[٢].

كما يذكر عبيد خيول قومه ، فيصفها بكرم الأصل أيضا فيقول :

تَذَكَّرتُ أَهلَ الخَيرِ وَالباعِ وَالنَدى ∴ وَأَهلَ عِتاقِ الجُردِ وَالبِرِّ وَالطيبِ

فعراقة نسب الخيل التى يتحدث عنها عبيد من الأمور الجديرة بالــذكر عنده ، وقد ساعدته خبرته ، ولغته فى بيانها ، فضمور الخيل ، وقلة شــعرها صفات مستحبة فيها ، والوجيه ، وحلاب ، والعتاق من الخيل دلالاتها معروفة لدى معاصريه .

---

(١) الديوان ص ٢٣ ، شمرت : جدت وأسرعت ، سنا الحرب : يريد ضوءها ولهبها، عجال : مسرعة ، المتون : الظهور ، الشعث : المتفرقة الشعر المتلبد ، شماطيط : فرق وجماعات ، ضرار : الكلب الجائع يرسل على الصيد، الكلاب : صاحب الكلاب .

(٢) الديوان ص ٢١ – هامش .

وأحيانا يقف عن جوانب الجمال فى فرسه ، فيذكر لونها الأحمر الـذى خالطه سواد ، ويشبهها بالظبى فى نعومة جلدها ،وانفراج جوانـب الحـوافر، وانتفاخ الجنبين ، فيقول:[١]

كُمَيتٍ كَشاةِ الرَملِ صافٍ أَديمُهُ ∴ مُفِجٍّ الحَوامي جُرشُعٍ غَيرِ مَخشوبِ

ويبدو أن العتاق من الخيل كانت تستهوى عبيداً ، ولـذلك كثيـراً مـا يتمناها ، فهاهو يقول : [٢]

أَو مُهرَةٌ مِن عِتاقِ الخَيلِ سابِحَةٌ ∴ كَأَنَّها سَـحـقُ بُـردٍ بَينَ أَرمـاحِ

وخيول قومه فى الحرب[٣] سريعة قوية تسابق الخيول ، كما أنها جـرد ضخمة :

مِن كُلِّ عِجلِزَةٍ بادٍ نَواجِذُها ∴ عَلى اللِجامِ تُباري الرَكبَ في عَنَدِ

وَكُلِّ أَجرَدَ قَد مالَت رِحالَتُهُ ∴ نَـهدِ المَـراكِـلِ فَعمٍ ناتِئِ الكَتَدِ

وفرسه إحدى خيول قومه التى يفتخر بها فى الحرب ، وكونها جـرداء عجلزة من المعاني التى ألح عليها عبيد فى الفرس المحببة لديه ، يقول : [٤]

---

(١) الديوان ص ٢٦- ، مفج : مفرج ، الحوامى : جوانب الحوافر ، منتفخ الجنبيين ، المخشوب : الفرس المغلوط النسب .
(٢) السابق ص ٣٩ .
(٣) السابق ص ٥٩-٦٠- والعجلزة : لفرس الشديدة ، النواجذ : أقصى الأضراس ، عند : اشتداد الجرى ، تبارى : تعارض ، الأجرد : القليل الشعر ، الرحالة : السرج من جند لا خشب فيه ، نهد : ضخم ، المراكل : الوسط الذى يركله الراكب ، فعم : ممتلئ ، ناتئ : بارز ، الكند : موضع مجتمع الكتفين .
(٤) السابق ص ١٠٢ .

هَذا وَرُبَّتَ حَربٍ قَــد سَمَوتُ لَها ∴ حَتّى شَبَبتُ لَها ناراً بِإِشعــالِ

تَحــتي مُسوَّمةٌ جَــرداءُ عِجلِــزَةٌ ∴ كَالسَهمِ أَرسَلَهُ مِن كَفِّهِ الغالي

وكثيراً ما يتخذ من أوصاف الخيل معني يفتخر به كقوله :

نَحنُ قُدنا مِن أَهاضِيبِ المَلا الــ ∴ ــخَيلَ في الأَرسانِ أَمثالَ السَعالي

شُزَّباً يَغشَينَ مِن مَجهــولَةِ الــ ∴ أَرضِ وَعــثاً مِن سُهــولٍ وَجِبالِ

فهو يتحدث بضمير الجمع – ويعنى قبيلته – قد قادوا الخيل الســريعة النشيطة ، التى تشبه أنثى الغول فى النشاط والخفة ، وهي خيــول ضــامرة ، تسير فى أرض مجهولة ذات رمال وسهول.

وكقوله فى الفخر على امرئ القيس بعد قتلهم لأبيه :

وَالخَيلُ عاكِفَةٌ عَلَيهِ كَأَنَّها ∴ سُحُقُ النَخيلِ نَأَت عَنِ الجُرّامِ

مُتَبارِياتٍ في الأَعِنَّةِ قُــطَّباً ∴ يَحمِلنَ كُــلَّ مُــنازِلٍ قَمقامِ[1]

فهو يفتخر بارتفاع خيولهم ، وبطولها ، وبأنها تحمل المقاتلين الأقوياء، والعظماء من الرجال .

وهكذا كان حديث عبيد عن الخيل ، المتمثلة فى خيل قومــه ، والتــى كانت مجالاً لفخره بهم ، وقد وصفها بالسرعة ، والقــوة ، وكمــال الخلــق ، وبالجودة فى الإغارة والحروب ، وكذلك كانت صفات فرسه ، التى لازمته فــى

---

(١) السابق ص ١٢٣ ت .د / حسين نصار ، والمنازل : المقاتل ، والقمقام : العظيم من الرجال .

الحرب ، وفى السلم ، رسم شكلها ، وهيئتها ، وسرعتها ، ونشاطها ، مشـــبها لها بمرئياته فى البادية ، فهى كالذئب تارة ، وكالعقاب تارة أخـــرى ، وكشـــاة الرمل ثالثة ، كما أن خيول قومه فى الحرب كالكلاب الجائعة ، حـــين يرســـلها الكلاَّب إلى الصيد .كما ألح كثيراً على عراقة نسب فرسه ، وطيب أصلها وكذلك حاله مع خيول قومه ، واتخذ من هذه المعانى مجالا للفخر بنفسه وبقبيلته .

* * * * *

الفصل الثانى
مظاهر البادية فى التعبير والتصوير

ذكرت –فيما سبق – أن طبيعة البادية قد انعكست على حياة أهلهـا ؛ فشكلتهم على غرارها ، وكان لها أثرها فى نظم القوم ، وعاداتهم ، وأخلاقهـم "فالصحراء بفنائها الرحب الفسيح ، وشمسها السـاطعة ، وهوائهـا النقـى المتجدد ، وأخطارها المتربصة ، قد صهرت البدو وكـونتهم تكوينـاً يـؤهلهم لتحمل المشاق التى فرضتها عليهم طبيعة أرضهم ومعاشهم ... ولم يقتصـر تأثير الطبيعة الصحراوية على ما تقدم ، بل أثرت أيضاً فـى عقليـة البـدو ، وثقافتهم ومعارفهم [1] .

ومن مظاهر تأثير البادية فى عقول أبنائها وتفكيرهم أن اتسمت أفكارهم بالوضوح والواقعية ، وخلت من التعقيـد والغمـوض ، واتسـمت خيـالاتهم وتصوراتهم بالحسية المادية فى أحيان كثيرة ، حيث صوروا ما وقعـت عليـه حواسهم .

وقد رأينا- فى الفصل السابق - مدى تأثير البيئة البدوية فى شعر عبيـد بن الأبرص ؛ فجاءت موضوعاته كلها مستمدة من البادية التى عاش فيهـا ، وترعرع بين شعابها وأوديتها .

وكما أثرت البادية فى موضوعات الشعر عنده أثرت كذلك فـى وسـائل

---

(١) أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ص ٢٧: ٣٤ .

التعبير والتصوير ؛ فبرز أثرها واضحاً فى ألفاظه ، وأساليبه ، وصوره ، وهذا ما ستكشف عنه الصفحات التالية :

أولاً : مظاهر البادية فى الألفاظ والأساليب :

على الرغم من أن عبيد بن الأبرص واحد من الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى الحواضر العربية ؛ طلباً للرزق عن طريق التجارة ، إلا أنه لم تجذبه بهجة الحواضر التى اختلف إليها ، ولم تؤثر فيه ، كما أثرت فيه طبيعة البادية ، التى شهدت مسقط رأسه ، كما شهدت جنباتها مراتع صباه وأنسه إبان طفولته وشبابه ؛ فلا غرو إذا كان للموروث البيئى أكبر الأثر فى عطائه الشعرى ، بل من الطبيعى أن تنطق مفرداته بحياة البادية وذلك لسببين :

أما الأول: **فلأنه عاش فى البوادى وتنقل بين ربوعها كثيراً ، أما اختلافه إلى الحواضر فكان قليلاً ، ولعل ذلك كان بعدما بلغ السن التى تؤهله للارتحال والتجارة ، كما أن إقامته فى هذه الحواضر كانت مؤقتة ، ومن ثم فلم يطالع المظاهر الحضارية إلا قليلاً ، فلم تتمكن من نفسه مثلما تمكنت مظاهر البادية .**

وأما الثانى : **فلارتباط شعره بحياة البادية ، وما اشتملت عليه من مظاهر الطبيعة المختلفة ساكنها ومتحركها ، وهذا لا يخفى على من يطالع ديوان عبيد .**

فإذا ذهبنا نتبين مظاهر البيئة البدوية فى ألفاظ شعره ، فإننا نجد من

الألفاظ ما يرتبط ارتباطاً وثيقا بالصحراء ، ومنها ما يرتبط بالأمطار والأنواء ، ومنها ما يرتبط بأماكن تجمع الماء ، ومنها ما يرتبط بحيوانات البادية ، ومنها ما يرتبط بالحروب والإغارات وأدواتهما ، ومنها ما يرتبط بنبات الصحراء وطيرها ، ومنها ما يرتبط بالمرأة البدوية .

وعلى الجملة فإن من يتصفح ديوان عبيد يجد أن الألفاظ التى حشدها فى شعره نابضة بأحاسيسه ، معبرة عما يعتمل فى نفسه ، يفوح منها عبق البادية ، وتتجلى فيها معالم الصحراء .

أما الألفاظ التى لها ارتباط وثيق بالصحراء ، وبقاعها ، وربوعها ، وحياة أهل البادية فكثيرة فى شعر عبيد ، من هذه الألفاظ ما يتصل بالأطلال ، وأوصافها وأماكنها ، ولعل قصيدته : " أقفر من أهله ملحوب " من أكثر القصائد التى جمعت مثل هذه الألفاظ ، فهى تعج بهذه الأماكن التى ورد كثير منها فى مقدماته الطللية الأخرى، ومن هذه الألفاظ : المذانب ، وجبنا حبرٍ ، وواهب ، وملحوب ، والقطبيات ، والذنوب ، وراكس ، وثعيلبات ، وذات فرقين ، والقليب ، وصاحة ، وحروس ، عردة ، وجوه ، وضرغد ، وغمرة ، وقفا شراف ، وغبراء الخبيبة ، وبرقة الروحان [١] ، وهذه كلها أماكن وقف عندها عبيد ، وذكر صويحباته فيها ، ومن الألفاظ المتصلة بالأطلال والصحراء أيضاً : النؤى ، والدمنة ، والأوارى ، والرسوم ، ودقائق التراب ، والمراح ،

---

(١)كلها أماكن وقف عندها الشاعر ليبكى أطلال أحبته فيها ، وبرقه : حجارة ورمل أو حجارة و طين ، والروحات : أقصى بلاد بنى سعد .

والمسرح ، والحلول ، والخرق ، والقيعان ، والوادى ، والقفر ، والبسابس ، والمهمه ، والسبسب ، والدكداك ، والأعقاد ، والديمومة ، والإمليس ، والبيد ، والفلاة ، والعريض ، والأوتاد ، والخَّل ، والسهوب ، والدوى [١] .

وجميع هذه الألفاظ نتاج البيئة البدوية ؛ فهى التى أتاحت لأبنائها الحل والارتحال ؛ مما جعلهم يتعلقون بهذه الأماكن ، ويُلحُّون على ذكرها كلما سمحت الفرصة بذلك ، فهى ألفاظ يستخدمها البدو فى حياتهم اليومية ، ولذلك اتسمت -فى الغالب -بالوضوح ، ففهم معانيها ودلالاتها لا يحتاج إلى جهد كبير ، وإن بدا لبعض القراء غرابة فى شىء منها ؛ فلبعد الشقة بيننا وبين عصر الشاعر .

وذِكْرُ عبيد بن الأبرص لهذه الأماكن ، وتلك البقاع والطرق الصحراوية، دليل على خبرته الطويلة بتلك البيئة البدوية ، ودليل واضح أيضاً على تمكنه من اللغة ، وامتلاكه لذخيرة لغوية كبيرة ، وخير دليل كذلك على تأثره بمظاهر البادية من حوله .

ومن الألفاظ التى لها ارتباط وثيق بالبادية ما يتصل بالمطر ، وأحواله ، وأسبابه ، ومقدماته ، ولعبيد فى ذلك شعر كثير -سبق الحديث عنه - فالسحاب ، والبرق ، وما يدور فى فلكهما من الأسماء والصفات التى تسعف الشاعر فى التعبير عن فرحته بالمطر فى هذه البيئة كثيرة فى ديوانه ، فأحيانا

---

(١) الخل : الطريق الصغير فى الصحراء ، والسهوب : الصحراء لا شئ فيها ، والدوى : الصحراء الواسعة .

يسمى السحاب " عارضا " [١] ؛ لأنه يعترض الأفق ؛ وأحيانا يطلق على المطر لفظ " المزن " [٢] ، كما يطلق على السحاب الأبيض "النشاص " [٣]، ويسمى المطر الأول " الوسمى " ، كما يسمى المطر الثانى " المولى "، كما يسمى أول المطر الريِّق " [٤] .

ويصف شدة المطر بكلمة " أجش " [٥] ، وهى صفة لاصقة بالصوت وعندما يصف قرب السحاب من الأرض تسعفه كلمة " دان "، وكلمة "مسفٍ " ، كما يستعين بالتصغير ؛ ليؤكد قرب السحاب من الأرض فى كلمة " فويق " فى قوله :

دان مسف فويق الأرض هيدبه ∴ يكاد يدفعه من قام بالراح [٦]

وعندما يصف ظهور البرق وسط السحاب الملئ بالمطر ينتقى من الكلمات ما يعبر عن هذه الصورة ، وما يدل على أثر البيئة فى اختياره للألفاظ ، وتأمل كلمة "تلألأ "، وما فيها من قلق فى النطق يحدث بسبب اجتماع همزتين فى الفعل ، وكأنه يشير باضطراب النطق فى هذه الكلمة إلى صورة البرق فى ظهوره ثم اختفائه ، كما يشير بها أيضاً إلى قلق أهل البادية من

---

(١) الديوان ص ٣٤.
(٢) الديوان ص ٤٥ .
(٣) الديوان ص ٧٥ .
(٤) الديوان ص ٤٤ .
(٥) الديوان ص ٣٥.
(٦) الديوان ص ٣٤ وهذا البيت من قصيدة كثر النزاع والاضطراب فيها ، فالأصمعى وبعض الكوفيين ينسبوبها إلى أوس بن حجر وآخرون ينسبونها إلى عبيد ، وطبعت فى ديوانى الشاعرين . انظر : ديوان عبيد ص ٣٣ ت د/ حسين نصار .

أصوات البرق ، وشدة المطر – على الرغم من فرحتهم بنزوله –وعندما أراد التعبير عن امتلاء السحابة بالماء جاء بكلمة "مملأة " حيث إن التضعيف فيها يدل على كثرة الماء ، ومع ذلك لم يكتف بهذا الوصف ، بل أضاف إليها وصفا آخر بكلمة جد معبرة عن الامتلاء وهى كلمة "غصاص "من "غص" المكان بأهله : ضاق بهم ، والمنزل غاص بالقوم ممتلئ بهم [١] .

كما اختار كلمة "دُلَّح " للتعبير عن ثقل السحابة بالماء ، وآثر كلمة "تثج "على كلمة "تصب ؛ لأن " ثج الماء " معناه : انصبابه بشدة [٢] وبسرعة ، وهذا المعنى لا يفهم من الفعل "تصب " وحده ، ويسمى الشاعر الرياح " لواقح " كما يسمى السحاب أحياناً " الخصاص "يقول : [٣]

أرقت لضوء برق فى نشاص ∴ تلألأ فى مملأَّة غُصاص

لواقح دُلَّح بالماء سُحم ∴ تثج الماء من خلل الخصاص

وعندما يصف حركة السحاب قبيل نزول المطر يستخدم الجناس الناقص الذى يخدم المعنى المراد فيقول :

فالتج أعلاه ثم ارتج أسفله ∴ وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح[٤]

منصاح[٤]

---

(١) ينظر: لسان العرب مادة غصص .
(٢) انظر: مختار الصحاح مادة (ث ج ج) .
(٣) الديوان ص ٧٥ .
(٤) الديوان ص ٣٥ .

ويأتى الطباق بين "أعلاه " و "أسفله "ليتم المعنى المقصود فى وضوح .

هذا فضلاً عن اختياره للألفاظ المنتزعة من البيئة البدوية ، والمعبرة عن الأفكار والأحاسيس التى يريد نقلها إلى المتلقى ، كوصفه للمطر المتدفق بكثرة بأنه " هطالّ " [١] ، وكتعبيره عن السحاب ذى الرعد المصوت بقوله :"مجلجل " [٢] ، ولا يخفى ما يحمله التضعيف فى الكلمة الأولى من دلالة على الكثرة ، ففعَّال من صيغ المبالغة ، كما أن تكرار الجيم واللام فى كلمة " مجلجل "يحكى شدة صوت البرق .

ومثل هذه الكلمات صنعتها بيئة الشاعر ، وأجاد الشاعر اختيارها ؛ فجاءت مصورة للمعنى سواء بتركيبها الصرفى أم بترتيبها الصوتى .

ومن الألفاظ التى لها ارتباط وثيق بالبادية ما يتصل بالماء وأماكنه فى هذه البيئة ، فشأن عبيد شأن غيره من أهل البادية فى حبهم لمنابع الماء ، وطلبهم لها ؛ ولذلك وجدناه يبكى من جملة ما يبكى من أطلال أحبته أماكن المياه فى هذه الأطلال ، " فعردة " التى وردت فى بائيته هى هضبة فى أصلها ماء لكعب بن عبد ، يبكيها كما بكى الديار فيقول :

فعردة فقفا حبرِّ ∴ ليس بها منهم عريب [٣]

وحين يصور انهمال دموعه على تلك الأطلال يستعين بمصادر المياه فى

---

(١) الديوان ص ١٠١.
(٢) الديوان ص ١٢١.
(٣) الديوان ص ١١.

هذه البيئة ، ليصنع الصورة التشبيهية ، فتارة يشبه دموعه بالشعيب : وهو القربة الخلق ، وتارة يشبهها بالمعين ، وتارة بفلج "نهر "فى واد أو بجدول "نهر صغير " فى ظلال نخل ، وكل ذلك لينتزع وجه الشبه وهو الكثرة والغزارة فى هذه الدموع التى يذرفها حزنا على فراقه لأحبته ، وتغير الديار بعدهم .

وكل تلك الألفاظ جاءت من البيئة البدوية التى يعيش فيها ، ولنرجع إلى الأبيات التى وردت فيها :

عيناك دمعهما سروب ∴ كأن شانيهما شعيب

واهية أو معين ممعن ∴ من هضبة دونها لهوب

أو فلج ما ببطن واد ∴ للماء من تحته قسيب

أو جدول فى ظلال نخل ∴ للماء من تحته سكوب [١]

فهى ألفاظ – كما ترى – تنطق بالمظاهر البدوية ، فالقربة ، والهضبة ، وبطن الوادى ، والفلج ، وظلال النخل كلها مظاهر معروفة عند أهل البادية ، ويبدو لى أن حب عبيد للمياه ، وتعلقه بمنابعها ومسالكها هو الذى دفعه ليذكر كل ذلك فى تشبيه واحد ، ولا غرو أن تكون للماء هذه الأهمية فى تلك البيئة القاحلة ، التى عماد الحياة فيها على المياه ؛ فحيثما وجدت استقر القوم ، ويظعنون إذا فقدوها .

---

(١) الديوان ص ١٢.

ومن الألفاظ التى لها ارتباط وثيق بالبادية ما يتصل بحيوانها وصفاته ، وهى كثيرة فى ديوان عبيد ، وتأتى الإبل فى مقدمة هذه الحيوانات ، فناقة عبيد صاحبه فى سفره ، تحدث عنها سائمة ترعى ، قوية لا تنى ، وسريعة تسابق ، ومن أوصافها التى يستحسنها فيها "" بادن " [١]و " خبوب" [٢] و"عيرانة "[٣]" مؤجد فقارها"[٤] وكأن "حاركها "[٥] كثِبِ [٦].

وهكذا نجد مظاهر البادية واضحة فى هذه الألفاظ ، فالحمار الوحش ، والرمال اللينة وحارك الناقة ، وسائر أعضائها من الأشياء المعهودة فى البيئات البدوية ، وقد وردت الأوصاف السابقة فى قوله :

وصاحبى بادن خبوب ∴ .....

عيرانة مؤجد فقارها ∴ كأن حاركها كثِبِ [٧]

وقد يطلق عبيد لفظ " قَمَع " على سنام الناقة ، ويصفه بأن " تامك " يريد ضخامته ، ويصف ناقته بالسرعة الشديدة ، عندما يزجرها ، ولكنها - رغم هذه السرعة- ليست طائشة ، فيقول :

لها قَمَع تذرى به الكور تامك ∴ إلى حارك تأوى إلى الصلب منصوب

---

(١) ذات بدن وجسم .
(٢) تخب فى سيرها والخبب : نوع من السير .
(٣) من العير وهو الحمار الوحش شبهها به لسرعته .
(٤) مؤجد : موثقة الخلق .
(٥) الحارك : ما انحدر من السنام ، وارتفع عن العنق من الناقة .
(٦) الكثب : الرملة اللينة ليست بالعظيمة شبه حاركها به لسمنها وملاستها .
(٧) الديوان ص ١٦ - ت د/ حسين نصار .

إذا حركتها الساق قلت نعامة ∴ وإن زجرت يوما فليست برعبوب[١]

وهى صفات مأخوذة من البيئة حوله .

وهناك من صور الحيوان ما اتخذ منها رمزاً لشجاعة قومه – كما سبق – ومظهراً من مظاهر الفخر بقبيلته بنى أسد ، كما حظيت فرسه بحظ موفور من شعره ، فصورها تارة ترعى ، وتارة تعدو ، وتارة تسابق ، ودقق فى رسم أعضائها بالتفصيل ؛ وذلك من منطلق خبرته ، بوصفه الفارس الخبير بطباع الحيوانات ، ويبدو من خلال الأوصاف التى أضفاها على فرسه أنه أحبها حباً لا يقل عن حبه للنساء ، ودليلنا على ذلك ما ذكره من أوصاف لهذه الفرس ، وانظر إلى وصفها بأنها "صاحبه "وليست حاملته أو مطيته :

* وصاحبى بادن خبوب * [٢]

ثم انظر إلى صفاتها المستحسنة عنده "نهدة "[٣]، "سرحوب "[٤] و"مضبر خلقها " [٥] ، و "ينشق عن وجهها السبيب " [٦] ، وأما لونها فهى " زيتية " [٧] .

---

(١) الديوان ص ٢٦:٢٧ - ت د/ حسين نصار .
(٢) الديوان ص ١٦.
(٣) فرس مشرفة.
(٤) سريعة ماضية.
(٥) مدمج موثق .
(٦) السبيب : شعر الناصية يريد ينتشر ناصيتها على وجهها لسرعة جبهتها وكثرة ناصيتها. ناصيتها.
(٧) لونها يشبه لون الزيت .

وهى كذلك "ناعم عروقها " [١] ، و " لين أسرها رطيب " [٢] يقول :

نـــهدة سرحـــــــوب ∴ .....

مضـــبر خلقها تضبيرا ∴ ينشق عن وجهها السبيب

زيتية ناعـــــم عروقها ∴ ولين أســـــرها رطيـــــب

[٣]

فبعض هذه الصفات يمكن أن توصف بها النساء .

وإلى جانب الصفات السابقة فهى "شملّة جرداء " وصهباء كظبى الرمل ، وعندما يتحدث عن الذكور من الخيل ، يذكر أن فرسه قد اختلطـــت حمرتـــه بسواد فهو " كميت "ويصفه بأنه "مفج الحوامى "[٤] ، وبأنه "جُرشُع " [٥] [٥] كما يصفه بسعة الصدر "رخو اللبان "، وبالسرعة مع الهدوء "سبوح " "، ويذكر أن خيول قومه " ضمَّر" أى قليلة اللحم ، وأنها كريمة الأصل "مـــن بنات الوجيه "أو "حلاَّب " :

أوحشت بعد ضمَّر كالسعالى ∴ من بنات الوجيه أو حلاَّب [٦]

كما أن هذه الخيول "مـــثقلات المتـــون والأصـــلاب " و " مصـــغيات

---

(١) ناعم عروقها : لينة .
(٢) الأسر : الخلق ، ورطيب : متثن ، راجع الديوان ص ١٧:١٨. ت د/ حسين نصار .
(٣) الديوان ص ١٧:١٨ - ت د/ حسين نصار .
(٤) مفج : مفرج الحوامى : جوانب الحوافر التى تحمى نور الأرجل .
(٥) منتفخ الجنبين ، انظر ديوانه ص ٢٦ - ت د/ حسين نصار .
(٦) الديوان ص ٢١.

الخدود" ، و "شعث النواصى "، و "كالضراء " [١] فى سرعتها .

وخيول قومه -أيضاً – " جرد عتاق "[٢] ، وكل هذه الصفات التى أضفاها على فرسه وخيول قومه من الصفات المستحسنة لدى أهل البادية عموماً ؛ ولذلك ألح عليها عبيد ، وأكثر منها فى شعره ، ولعل غرابة الألفاظ إلى حد ما ظاهرة فى شعره الذى يتصل بالإبل وبالخيل – كما رأينا فيما سبق - ولاشك أن هذا مظهر واضح من مظاهر البادية .

ومن الألفاظ التى لها ارتباط وثيق بحياة البادية ما يتصل بالحرب وأدواتها ، وهى كثيرة فى شعر عبيد ؛ فهو شاعر كبير فى قومه ، وفارس من الفرسان المعدودين فيهم ، ومن هذه الألفاظ : الثقاف ، والصعدة ، والأين ، والصلق ، والنواهل ، والضباب ، ويُطلِق على الثأر كلمة "الديْن " ، وينسب السيف إلى موطن صنعته " المشرفى" ونجد الأفعال :نضرب ، انحنينا ، تنوش، أبحنا ، نُهين [٣] ، وهى ألفاظ ترتبط بجو الصراع الذى كان يحتدم فى العصر الجاهلى ، كنتيجة طبيعة للبيئة التى نشأوا فيها ، ونتيجة طبيعة للعلاقات الاجتماعية والروابط الإنسانية ، والسلوكيات الشخصية التى تحدث بين أبناء المجتمع بعضهم وبعض ،ونتيجة للعصبية القبلية ،وقانون الأخذ بالثار أيضاً[٤].

---

(١) الديوان ص ٢٣.
(٢) الديوان ص ٢٤.
(٣) الديوان ص ١٣٦:١٣٨.

أيضاً[١].

ومن الألفاظ المتصلة بنبات البادية فى شعر عبيد النخل[٢]والزعفران[٣] والفرصاد [٤] والأراك والتوت، والبردى ، و " هو نبات يشبه نبات القصب " يشبِّه به ساقى محبوبته [٥] ، والخزامى وهو نبات طيب يشبه به ريح محبوبته [٦] ويسمى المزارع باسمها المتعارف عليه عندهم مثل "مزارع مخـــروب " لقومه بنى أسد ، ويذكر المسرح "المرعى "، والروضة التى توالت عليهـــا أمطار الربيع [٧] فاخضرت .

ومما يلاحظ كذلك على لغة عبيد أن البادية بشدتها قد انعكســـت علـــى صياغته للألفاظ فجاءت صياغتها موُحية بالشدة فى كثير من الأحيان ، من ذلك استخدامه لصيغ المبالغة مثل :كلمة "دفوع "[٨] التى يصف بها الطعنة فهى فهى تدفع الأيدى بشدة ، لقوة انفجار الدم منها ، ومثل كلمة "خئـــون " [٩] التـــى يصـــف بهـــا الخـــائن الـــذى يتَّقـــى كـــالأجرب ، ومثـــل كلمـــة

---

(١) انظر : تاريخ الأدب العربى العصر الجاهلى - د/ شوقى ضيف ص ٦٢ ، ونظرات فنية للأدب الجاهلى - د/ فراج جوده فراج ص ١٧٩.
(٢) الديوان ص ٤٥.
(٣) الديوان ص٤٤.
(٤) الديوان ص ٤٩.
(٥) الديوان ص ٦٨.
(٦) الديوان ص ١١٤.
(٧) الديوان ص ٤٤.
(٨) الديوان ص ٣٢.
(٩) الديوان ص٥٥.

"طلوب "[١] التى يصف بها العقاب بأنها ملحة فى طلب الصيد .

ويستخدم صيغة "فعَّال " ويريد بها صاحب الشئ مثل كلمة "كلاَّب "[٢] .

يعنى بها صاحب الكلاب .

ويلاحظ كذلك شغف عبيد بنداء الترخيم، وقد يتكرر هذا النداء فى بيت واحد كقوله:

يا صاح مهلا ، أقل العذل يا صاح ∴ ولا تكونن لى باللائم اللاحى [٣]

وواضح أن فى الترخيم تخفيفا يتناسب مع طبيعة أهل البادية الذين يأنفون من التعقيد والتكلف .

وشاعرنا عبيد – وإن كانت البادية قد طبعت ألفاظه بطابعها - كما رأينا –فبدت فيها غرابة إلى حد ما – كما سبق أن أشرت إلا أنها لا تعدُّ غريبة بالنسبة للشعر الجاهلى ، بل يمكننا أن نسم جل الألفاظ بأنها من الواضح المعروف فكثير منها يدل على مسميات معروفة ، ومشهورة عند أهل الجاهلية ، وبخاصة عند سكان البوادى ، ويندر ، فى ديوانه الغريب الوحشى ، ومن هذا الغريب الذى يكشف عن قدرة عبيد اللغوية ، ومكانته البيانية قوله وهو يتحدث مفتخراً بفصاحته :

---

(١) الديوان ص ١٨.
(٢) الديوان ص٢٣.
(٣) الديوان ص ٢٨.

لسانى بالنـــثـــر وبالـــقـــوافى ∴ وبالأسجاع أمهر فى الـــغـــياص

من الحـــوت الذى فى لج بحر ∴ يجيد السبح فى لجج المغـــاص

إذا مـــا باص لاح بصفحـــتـــيه ∴ وبيض فى المـــكر وفى المحاص

تلاوص فى المداص ملاوصـــات ∴ له مَلص دواجـــــن بالمـــلاص[١]

فهذا التلاعب بالألفاظ يكشف عن لعب فنى على حد تعبيـــر الـــدكتور /غازى طليمات والأستاذ/عرفان الأشقر[٢] – وكأنه يريد من خلال هذه الألفـــاظ أن يعبر عن قدرته على تصيد درر المعانى من بحر اللغة ، ويتلعّـــب بالألفـــاظ تلعُّب السمكة[٣] بالماء ، على حد تعبير شاعرنا عبيد .

ومن مظاهر البادية فى أسلوب عبيد بن الأبرص اعتماده كثيـــراً علـــى التكرار ؛ ليؤكد المعنى الذى يريد التعبير عنه كقوله :[٤]

تذكرت أهلى الصالحين بملحوب ∴ فقلبى عليهم هالك جد معـــلوب

تذكرت أهل الخير والباع والندى ∴ وأهل عتاق الجرد والبر والطيب

تذكرتهم مـــا إن تجـــف مدامعى ∴ كأن جدول يسقى مزارع مخروب

---

(١) الديوان ص٧٧ .
باص : أسرع ، الوبيص : البريق . المحاص : الرجوع ، تلاوص : نظر يمنة ويسرة ، المداص : الماء الذى تذهب فيه السمك وتجئ . الملص : جمع مليص وهو المولود لغير تمام ، دواجن : مقيمة ، الملاص : الموضع الذى ملصت فيه لحيتان أولادها .
(٢) الأدب الجاهلى (قضاياه أغراضه أعلامه فنونه) ص ٤٥٤.
(٣) السابق ص ٤٤٨.
(٤) الديوان ص ٢٤،٢٥.

فالتكرار هنا تعبير عن حالة شعورية وموقف نفسى جد عميق ، فهو يبكى أهله بهذا المكان ، وما كانوا عليه من خِلال كريمة ، ومجد تليد ، وماضى عريق ، وكل ذلك يدعوه للاعتزاز والفخر بهم ، فهم جديرون بالتذكر ؛ ولذا كرر الجملة ؛ لتثبت فى ذهن المتلقى ، هذا فضلا عما يفيده التكرار من إظهار التوجع لبعدهم وفراقهم ، وحياة البادية هى التى حتمت على أصحابها الانتقال من مكان إلى آخر .

ومن الأساليب التى شاعت فى شعر عبيد أسلوب الاستفهام الذى لجأ إليه فى كثير من قصائده ، وبخاصة فى مقدمات القصائد ، كقوله فى مطلع قصيدة بائية :

لمن طلل لم تعف منه المذانب ∴ فجنبا حبرِّ قد تعفى [١] فواهب ؟

وقوله فى مطلع بائية أخرى :

لمن الديار أقفرت بالجناب ∴ غير نؤى ودمنة [٢] كالكتاب ؟

وقوله فى مطلع قصيدة حائية :

أمن أم سلمى تلك لا تستريح ∴ وليس لحاجات الفؤاد [٣] مريح؟

ولا يخفى ما للاستفهام من قوة التأثير وإثارة الملتقى ، وهو من الأساليب الشائعة فى الشعر الجاهلى ، وبخاصة فى مستهل القصيد ، فسؤال

---

(١) الديوان ص ٨.
(٢) الديوان ص ٢١.
(٣) الديوان ص ٢٩.

الديار ، والسؤال عنها ، وعن الأطلال ، وعن الأحبة أهلها ظـاهر أسـلوبية ، لدى الشعراء الذين عاشوا فى البادية ، فهذه الاستفهامات يستطيع بها الشاعر أن يستثير العواطف ؛ ليحقق المشاركة الوجدانية بينه وبين المتلقين .

ومن مظاهر البادية وتأثيرها فى أسلوب عبيد الاستطراد ، فيلاحظ أنـه يتحدث عن شىء مشبهّاً له بشئ آخر ، ثم ينطلق فى التفصيل الدقيق للمشـبه به ، وبيان حركاته وأحواله حتى لتكاد ننسى المشبه ، وهذا الاستطراد كثير فى شعر عبيد ، ففى قصيدته "أقفر من أهل ملحوب "، يريد أن يصـف فرسـه بالسرعة ، فيشبهه بالقوة – وهى العقاب – ثم ينطلق فى وصف العقاب مبيناً هيئتها ، وحركتها ، وانقضاضها على الثعلب حتى إننا لننسى الفـرس تمامـا ونلتقى مع هذه القصة التى تصور انقضاض العقاب على الثعلب ،تأمل قوله:[١]

---

(١) الديوان ص ١٨: ٢٠.

كأنهـــا لقِـــوة طـــلـــوب ∴ تحن فى وكـــــرها القـــلوب

باتـــت عـــلى إرم رابـــئة ∴ كأنها شيخـــة رقـــــــوب

فأصبحت فى غـــداة قـــرة ∴ يسقط عن ريشها الضريـــب

فأبصرت ثعلباً من ساعـــة ∴ ودونه سبسب جـــديـــــب

فنفضت ريشها وانتفضت ∴ وهى من نهـــضـــة قـــريـــب

فاشتال وارتاع من حسيسها ∴ وفـــعـــــلـــه يفعل المذءوب

فنهضـــت نحـــوه حثـــيثة ∴ وحـــــــردت حـــردة تسبب

فـــــدب من رأيها دبيبا ∴ والعـــيـــن حـــملاقها مقلوب

إلى آخر هذه القصة ، وهذا الاستطراد مظهر من مظاهر البادية التى لا تعرف الاستقرار فى مكان ، فلعل الشاعر قد نظم هذه القصيدة وأمثالهـــا فـــى مواقف مختلفة ، وهذا ما يفسر لنا ظاهرة الاســـتطراد فـــى شـــعر الشـــعراء الجاهليين ، وبخاصة الذين غلبت البداوة على حياتهم ، ومن اســـتطراد عبيـــد أيضاً ما نجد فى قصيدة له "دالية "حين يصف ناقته ، فيشبهها فى سرعتها بثور ضامر ، قد هطلت عليه الأمطار ، فى ليلة شديدة البرد ، وهكذا ينتقل من وصف ناقته إلى وصف هذا الثور ، مبيناً لونه ، فيشبه لونه بالكوكب الـــدرى فى البياض ، حتى لكأننا بصدد الحديث عن الثور " وهو المشبه به " لا عـــن الناقة " المشبه" ، يقول [١] :

---

(١) الديوان ص ٤٣-٤٤.

فاقطـــع لبانتـــهم بذات براية ∴ أُجُد إذا ونت الركـــاب تزيَّـــد

وكأن أقتـــادى تضمن نسعها ∴ من وحش أورال هبيـــط مفرد

باتت عليه ليـــلة رجـــبـــيـــة ∴ نصباً تسح الماء أو هى أبـــرد

ينفى بأطراف الألاء شفيفهـــا ∴ فغدا وكل خصيل عـــضو يُرعد

كالكوكب الدرئ يشرق متنه ∴ خرصا خميصـــا صلبـــه يتأود

وفى مثل هذا الاستطراد نلمح أسلوباً قصصـــياً يبـــدو أن عبيـــداً كـــان مشغوفا به .

ومن مظاهر البادية فى أسلوبه كذلك تغيير الأسلوب عن النمط المعهود إلى حد ما ، كأن يفصل بين النعت والمنعوت مثلا ، كقوله يصف سنام ناقته :

لها قمع تذرى به الكور تامك ∴ إلى حارك تأوى إلى الصلب منصوب [١]

ففصل بين "تامك "النعت و "قمع "المنعوت ، بالجملة الحالية "تذرى به الكور "، كما فصل بين "منصوب "النعـــت ، و "حـــارك "المنعـــوت ، بالجملة الحالية " تأوى إلى الصلب "ولكن مثل هذه الأســـاليب نـــادر فـــى ديوان عبيد .

ثانياً :مظاهر البادية فى التصوير :

عندما نطالع الصور الشعرية التى حشدها عبيد بن الأبرص فى شـــعره

---

(١) الديوان ص ٢٦.

نجد أن البيئة البدوية بطبيعتها الصحراوية ، ومظاهرها المختلفة ، تمثل المصدر الرئيسى للصورة الشعرية عنده ، ولذا اتسمت بعض صوره بالحسية وكذلك الحال فى شعر معاصريه بصفة عامة فإن "التشبيهات والاستعارات فى الشعر الجاهلى تكاد تكون قوالب ثابتة فإذا وصف الشاعر الإبريق توقعنا تشبيهه بالظبى ، وإذا وصف الأطلال وجدنا بإزائنا الصحف ، والكتابة ، والوشم ، وإذا وصف الخمر تبادر إلينا وصف رائحتها بالمسك ، وإذا وصف المرأة خطر لنا بإزائها البدر ، والشمس ، والظبى ، والجؤذر والقطاة [١] كما كانوا يشبهون بأشجار البادية كالنخيل ، والدوم ، وغيرهما ؛ وما ذلك إلا لغلبة البداوة على حياتهم .

وكما بدت مظاهر البادية واضحة فى ألفاظ عبيد وتعبيراته ، بدت كذلك فى صوره المتمثلة فى تشبيهاته واستعاراته ؛ فجاءت فطرية واضحة ، لا عمق فيها ولا إغراب، فصوره غالباً منتزعة من مظاهر البادية من حوله كالأماكن ، والربوع ، والحيوانات ، والوحوش ، والطيور ، ويقل تأثره بالمظاهر الحضارية فى صوره ، وفى هذه الصور المتأثر فيها بالمظاهر الحضارية نراه يمزج الصورة البدوية ، بظلال الحضارة ، وليس هذا بغريب على عبيد الذى علمنا أنه "كان يزور ملوك الحيرة ويرى ما كانوا يتمتعون به من حضارة

---

(١) الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى النشأة والتطور - د/ محمد مصطفى هدارة ص ٦٨ - دار المعارف .

ورفاهية ، فتأثر بها وظهر صداها فى شعره " [١] .

فعندما يصور عبيد بن الأبرص رحيل أحبته على ظهور الإبل ، وأظعنهم تتدلى على جانبيها ، تسعفه صورة النخيل فى هذه البيئة ، التى يعيش فيهـا ، وقد تدلت عذوقها ، واختلفت ألوانها ، وزهور ثمارها ، فيقول :

كان أظعانهم نخل موسقة ∴ سود ذوائبها بالحِمل [٢] مكمومه

كما أنه يرى أن خيل قومه فى ارتفاعها وطولها وتمام خلقهـا تشـبه شجر النخيل المرتفع ، فيقول :

والخيل عاكفة عليه كأنها ∴ سحق النخيل نأت عن [٣] الجرائم

والنخيل من أشجار البادية المعروفة بارتفاعها .

وبكاؤه على أطلال أحبته يرى له صورة خيالية منتزعة من الباديـة ، مرتبطة بعالم الطير فيها ، فيقول عن أطلال أحبته :

وقفت بها أبكى بكـاء حـمامـة ∴ أراكية تدعـو الحمـام الأواركا

إذا ذكرت يوماً من الدهر شجوها ∴ على فرع ساق أذرت الدمع [٤] سافكاً

وناقته كالحمار الوحشى الغليظ فى سرعته ، وكالجمل فى قوته :

---

(١) نظرات فنية فى الأدب الجاهلى ص ٢٠٢ - د/ فراج جودة فراج - دار الثقافة العربية ١٩٩٠م .

(٢) مختارات شعر العرب لابن الشجرى ص ٣٥٥ - ت/ على محمد البجاوى - بيروت - لبنان - دار الجيل - ط الأولى ١٩٩٢م ، والديوان ص ١٢٨.

(٣) الديوان ص ١٢٣ - ت د/ حسين نصار .

(٤) الديوان ص ٩٢ ، والأوارك من الحمام : ما سكن شجر الأراك .

كأن قتودى فوق جأب مطرد ∴ رأى عانة تهوى فظل [١] مواشكاً

يا ناقة مـــا كسوتها الرحل ∴ والأنساع رهْبـا كأنـها جمل [٢]

ويشبه ترفعه على من يحاول ظلمه ، وعلو مكانته على أعدائه بأن من يحاول الإساءة إليه فكأنما يتجشم مرتفعا صعب المرتقى :

ومن رام ظلمى منهم فكأنما ∴ توقص حينا من شواهق صِندِدِ

كما يشبه الخائن بالأجرب فى الحذر منه ، والابتعاد عنه :

وجدت خئون القوم كالعر يتقى ∴ وما خلت غم الجار إلا [٣] بمعهد

ويشبه كرهم على أعدائهم حتى أجبروهم على الفرار بالناقـة السـيئة الخلق التى تعض حالبها ، وكل من دنا منها :

عطفنا لهم عطف الضروس فأدبروا ∴ سراعاً وقد بل النجيع [٤] السنابكا

وناقته كذلك تشبه الثور الضامر المنفرد عن القطيع وقد هطلت عليـه الأمطار فى ليلة شديدة البرد :

وكأن أقتادى تضمن نسعها ∴ من وحش أورال هبـط مفـرد

---

(١) الديوان ص ٩٢ ، والمطرد : الذى طردته الحمير ، والعانة : جماعة الحمر ، وتهوى : تسرع ، المواشك : السريع .

(٢) الديوان ص ٩٦.

(٣) الديوان ص ٥٥ ، ومعنى الشطر الثانى : إن حزن الجار حزن لى .

(٤) الديوان ص ٩٣.

باتت عليه ليلـــة رجـــبية ∴ نصبا تسح الماء أو هى[١] أبرد

كما أن هذا الثور يشبه فى لونه وسرعة انحداره الكوكب المضئ :

كالكوكب الدرى يشرق متنه ∴ خرصا خميصا صلبه [٢] يتأود

وأحيانا يشبه الناقة القوية على العمل ، المجدة فى ســيرها بالمهـــاة ، فيقول :

يكلفون سراها كل يعمـــلة ∴ مثل المهاة إذا ما احتثها [٣] الحادى

وبالمهاة يشبه محبوبته سعدى فيقول :

وإذ هى حوراء المدامع طفلة ∴ كمثله مهاة حرة أم [٤] فرقد

كما يشبه أسنانها بالأقحوان ، وهو نبات له زهر أبيض فى وسطه كتلة صغيرة صفراء ، وأوراق زهره مفلجة صغيرة ، يقول :

وتبسم عن عذب اللثاة كأنـــه ∴ أقاحى الربى أضحى وظاهره [٥] ندِى

كما يشبه رغبته الشديدة فيها مع بعدها عنه بالحائم الصدى :

فإنى إلى سعدى وإن طال نأيها ∴ إلى نيلها ما عشت كالحائم [٦] الصدى

---

(١) الديوان ص ٤٣-٤٤.
(٢) الديوان ص ٤٤.
(٣) الديوان ص ٤٧ فاليعملة : الناقة القوية ، والمهاة : البقرة .
(٤) الديوان ص ٥٣.
(٥) الديوان ص ٥٣.
(٦) الديوان ص ٥٣

فالحائم الصدى هو الشديد العطش ، وأكثر ما يكون هذا فى البادية حيث قسوة طبيعتها ، وقلة المياه فيها ، وهكذا تبدو مظاهر البادية واضحة فى صوره التى رسمها لمحبوباته ، فإذا كانت سعدى كالمهاة ، ففاطمة كالظباء العيس ، وسيقانها كنبات القصب :

وسبتك ناعمة صفىَّ نواعم ∴ بيض غرائر كالظباء العيس

خود مبتلة العظام كأنها ∴ بردية نبتت خلال [١] غروس

ويشبه الخيل وهى تعدو مسرعة بطير القطا التى تسرع فى الهاجرة لتروى ظمأها من ماء قليل متجمع :

القائد الخيل تردِى فى أعنتها ∴ ورد القطا هَجَّرت ظمأ إلى [٢] الثمد

كما يشبه الإبل بالنعام :

والعيس مدبرة تهوى بأركبها ∴ كأنهن نعام نفَّرٌ مُعُط [٣]

ولعل أوضح ما تبدو فيه مظاهر البادية فى تصوير عبيد ما نراه فى وصفه لمحبوباته الذى أشرت إلى طرف منه قبل ذلك فى حديثه عن سعدى وفاطمة .

" فأم سلم "طعم فمها يشبه طعم الخمر الممزوجة :

---

(١) الديوان ص ٦٨.
(٢) الديوان ص ٥٩.
(٣) الديوان ص ٨٩.

إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة ∴ مشعشعة ترخى الإزار [١] قديم

ومحبوبته الذى لم يذكر اسمها مثل الظبى الخالص البياض :

وقد تبطنت مثــل الرئم آنسة ∴ رود الشباب كعابا ذات [٢] أوضاح أوضاح

ويبدو أنه كان مغرما بطعم الخمر الممزوجة ، ومحبا لها ؛ ولذا أكثــر من تشبيه فم المحبوبة بها ، ومن ذلك قوله :

وغيلة كمهاة الجو ناعمــة ∴ كأن ريقتها شيبت [٣] بسلسال

كما كان مغرما بجمال عيون البقر الوحشى ؛ ولذا كثيراً ما شبه بهــن محبوباته اللاتى لم يذكر أسماءهن ، كما شبه بهن سعدى -كما سبق -وشبه بهن هند فى قوله :

فإنها كمــهــاة الجــو ناعــمة ∴ تدنى النصيف بكف غير موشومه

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت ∴ صهباء صافيــة بالمسك [٤]مختومه

ومن مظاهر البادية السحاب ، والبرق ، والرياح التى تــدفع الســحب فينزل المطر ، وقد صور عبيد ذلك عن طريق التشبيه كما فى تشــبيهه كمــا يشبه الإبل بالنعام :

---

(١) الديوان ص ٢٩.
(٢) الديوان ص ٤٠.
(٣) الديوان ص ١٠٣.
(٤) الديوان ص ١٢٨.

والعيش مدبرة تهوى بأركبها ∴ كأنهن نعام نُغَّر [١] مُعُط

ولعل أوضح ما تبدو مظاهر البادية فى تصوير عبيد ما نراه فى تشبيهه نزول المطر بجلب العبد للناقة العشار :

سقى الرباب مجلجل ∴ الأكناف لماح بروقه

جون تكركره الصبا ∴ وهنا وتمر به خريقه

مرى العسيف عشاره ∴ حتى إذا درت عروقه

ودنا يضئ ربابه ∴ غلبا يضرِّمه حريقه

حتى إذا ما ذرعه ∴ بالماء ضاق فما يطيقه

هب له من خلفه ∴ ريح يمانية تسوقه

حلت عزاليه الجنوب ∴ ب فثج واهية [٢] خروقه

ويعلق الدكتور / سيد نوفل على هذا التصوير قائلاً " :هذا الوصف يمتاز بوضوح التمثيل ، والإطناب ، فتبدو الرياح مشتبكة مع السحب ، تلاينها حينا ، وتشتد عليها حينا حتى تضيق ذرعاً بالماء فتلقيه ، ويبدو الشاعر أشد إعجابا بهذه المعركة ، والتأثر بالبيئة واضح ، حين يذكر العبد يمرى ضروع العشار الغزيرة اللبن " [٣] .

ويبدو فى هذا التصوير أيضاً الارتفاع على الحسية فى تصوير الشاعر

---

(١) الديوان ص ٨٩.
(٢) السابق ص ٨٩.
(٣) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٦٥.

الجاهلى حيث "يتوحد السيل والشاعر فى شىء واحد ، ولذلك فإن السيل "قد ضاق ذرعاً "بما يحدث على وجه الأرض وأصبح كل شىء يدعو إلى إعادة تقويم الحياة ، وما يحدث فيها فبدا السيل كأنه "يضيق بما يحمل من الماء " وكأنه يريد أن يلقى بكل ما يحمل دفعة واحدة [١] فالذى يضيق ذرعا هو الإنسان العاقل .

ويستخدم عبيد من مظاهر البادية الآلة التى تسوى بها الرماح فى تصوير عزة قومه ومنعتهم ، وأنهم لا تؤثر فيهم المصاعب والأحداث ليرد على امرئ القيس تهديده لقوم عبيد فيقول :

إنا إذا عض الثقا ∴ ف برأس صعدتنا [٢] لوينا

فالمصاعب والأحداث الجسام التى تعرض لقومه تشبه تلك الآلة التى تستخدم لتسوية الرماح المعوجة وتعديلها وتهييئتها للاستعمال ، والتى تعرف بالثقاف ، وصور عزتهم ومنعتهم بالرماح التى تسوى بتلك الآلة ، ولكنها تستعصى عليها لصلابتها وشدتها ، وكما تستعص الرماح التى بهذه الصفة على الثقاف فإن عزتهم وكرامتهم تأبى الخضوع والاستسلام أمام تلك المصاعب والأهوال التى تواجههم [٣] .

فقد شبه المصاعب بالثقاف وحذف المشبه على سبيل الاستعارة

---

(١) رمز الماء فى الأدب الجاهلى - د/ ثناء أنس الوجود - دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ٢٠٠٠م .

(٢) الديوان ص ١٣٦، والثقاف : آلة تسوى بها الرماح ، والصعدة : الفتاة المستوية .

(٣) نظرات فنية فى الأدب الجاهلى - د/ فراج جودة فراج ص ١٩٩. – بتصرف يسير .

التصريحية كما شبه تأبيهم على الخضوع بالصعدة على سبيل الاستعارة التصريحية أيضاً ، ويمكن أن تكون أيضاً كناية عن العزة والمنعة [١] .

وبهذا التصوير الذى استمد عنا صره من البيئة نجح الشاعر فى إبراز عزتهم ، وإبائهم الضيم ، ورفضهم الذل ، وكلها معان مجردة نقلها إلى عالم الحس والتجسيد ، وقربها بذلك إلى خيال المتلقى [٢] أسهمت فى صنعها مقدرة الشاعر الفنية ، ومظاهر البيئة البدوية التى عاش فيها عبيد .

وهكذا فإن إبداع التشبيهات والاستعارات وإدراكها لا يقومان على اكتشاف مشابهات حقيقة قريبة المتناول أو بعيدته لكنهما يرتكزان على أعراف حضارية وبيئية [٣] .

ومما سبق يتضح لنا أن مظاهر البادية كانت حاضرة فى شعر عبيد فى سائر الأغراض التى نظم فيها سواء فى ذلك وصفه ، وفخره ، وغزله وسائر أغراضه .

فقد تركت مظاهر البادية بصماتها جلية فى شعره ، وبدا شعره معبراً عن بيئته أصدق تعبير ، وهكذا فكما كان الشعر قوى التأثير فى حياة العرب الجاهليين كان شديد التأثر بها ، وكان التفاعل بين الشعر الجاهلى وبيئته قويا، فبدت البيئة فى مرآته الصافية ، جلية واضحة ، وعرفنا عن طريقه طبيعة

---

(١) الديوان ص ١٣٦ هامش .
(٢) نظرات فنية فى الأدب الجاهلى - د/ فراج جودة فراج ص ٢٠٠.
(٣) تطور الصورة فى الشعر الجاهلى - د/ خالد الزواوى ص ٨ - ط مؤسسة حورس الدولية - نشر دار المعارف ٢٠٠٥م.

البيئة التى عاشوا فيها .

تعقيب

شعر عبيد فى مظاهر البادية ماله وما عليه

أود فى بداية هذا التعقيب أن أشير إلى قضية مهمة تتعلق بشعر عبيد بن الأبرص ، وهى قضية صحة الشعر المنسوب إليه ، حيث إن الشعر المنسوب إلى عبيد قد أثيرت حوله شكوك ، فاتهم شعره أو أغلب شعره بأنه منتحل عليه .

وربما كانت عبارات ابن سلام الجمحى تحمل بين طياتها ما يؤيد القائلين بانتحال شعر عبيد ؛ وبخاصة عندما يذكر عنه : أن " شعره مضطرب ذاهب " [١] ، وهى عبارة لو تأملناها مع العبارة التى قبلها لوجدنا تناقضا واضحاً فى فكر ابن سلام ؛ حيث يقول فى العبارة السابقة عن عبيد : إنه " قديم ، عظيم الذكر ، عظيم الشهرة " [٢] ، فكيف يكون عظيم الذكر ، عظيم الشهرة من كان شعره مضطرباً ذاهباً ؟ وهل يعظم ذكر شاعر إلا بجودة شعره كماً وكيفاً ؟ وبخاصة إذا علمنا أن " القبلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون فى الأعراس ، ويباشر الرجال والولدان " على حد تعبير ابن رشيق القيروانى [٣] وأحسب أن الشاعر يعظم ذكره وتعظم شهرته منذ احتفاء القبيلة به كما ذكر ابن رشيق ولكن قد يكون لابن سلام العذر فى ذلك حيث إن شعر

---

(١) طبقات فحول الشعراء السفر الأول ص ١٣٨ ت / محمود محمد شاكر .

(٢)السابق والصحيفة نفسها .

(٣) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده الجزء الأول ص ٦٥ ت / محمد محى الدين عبد الحميد – دار الجيل - بيروت – لبنان .

عبيد على الأغلب لم يجمع قبل زمن ابن سلام ، وهذا ما أكده المستشرق (سير تشارلس ليال) الذى جمع ديوان عبيد [١].

وفى زعمى أن مما يرد مقولة ابن سلام : بأن شعر عبيد " مضطرب ذاهب " ما احتفظت به المصادر الأدبية من شعر لعبيد ، فقد اقتبس الجاحظ فى كتبه كثيراً من شعره ، كما جمع ابن الشجرى فى مختاراته اثنتا عشرة قصيدة من شعر عبيد ، ناهيك عما جاء فى جمهرة أشعار العرب ، وفى منتهى الطلب ، وما جاء من أبيات متناثرة فى كثير من مصادر الأدب الأخرى [٢] .

والعجيب أن المستشرق (ليال) الذى يلتمس العذر لابن سلام وينفى بشدة القول بانتحال شعر عبيد حين يذكر أنه : " ليس هناك من سبب للشك فى صحة نسبة أغلب القصائد لعبيد " [٣] .

العجيب أنه بعد هذا كله نراه يقول : " أما ما نشك فيه فالقصائد رقم : ٤٣، ٣٠ ، ١٢ ، ٤٨ بالإضافة إلى أبيات فى القصيدة رقم : ٣ ، وأما الأبيات الحكمية ذات الصيغة الإسلامية التى تظهر فى القصيدة الأولى ، وبعض القطع الأخرى من زيادة بعض المتأخرين " كما يقول بعد ذلك : " ..... ومن الواضح أن بعض الشذرات مخولة أو منسوبة خطأ لعبيد مثل رقم ١٥، ١٧، ١٨ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٣ وربما كان الباقى صحيحاً [٤].

ولست أدرى ماذا أبقى (ليال) من شعر صحيح النسب إلى عبيد وبخاصة بعدما قرأت عبارته الأخيرة " وربما كان الباقى صحيحاً " فهى تشير

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ت / د. نصار (مقدمة ليال) ص ١٨ .
(٢) السابق ص ١٩ .
(٣) السابق ص ٢٥ .
(٤) السابق والصحيفة نفسها .

إلى شكه فى بقية الديوان أو عدم اعتقاده بصحة هذا الشعر ، وكأنى به يوافق غيره من المستشرقين الذين يطعنون فى الشعر الجاهلى كله .

والدليل على ذلك إيثاره لكلمة (رُبَّ) التى يقول عنها النحويون : إنما وضعت للتقليل ، قال الزجاج : " لا من قال ابن رب يعنى بها التكثير فهو ضد ما تعرفه العرب " [١].

فالمستشرق (سير تشارلس ليال) بهذا المفهوم كأنه يقدح فى أكثر الديوان ، وبمراجعة القصائد التى شكك فيها – وقد ورد كثير منها فى بحثى هذا – وجدتها لا تختلف عن أسلوب عبيد فى بقية شعره ، كما وجدت فيها إشارات إلى الأماكن البدوية التى كان يَسكنها عبيد ، وفيها كذلك ذكر لديار بنى أسد ، وأماكن عدة ، ومواضع متعددة تنقل فيها الشاعر ، وفيها كذلك إشارات تاريخية ، وأحداث عاصرها عبيد قد كشفت عنها فى هذا البحث [٢] مما يدل دلالة واضحة على صحة نسبة أغلب الأبيات فى القصائد المشار إليها إلى عبيد، أما ما ورد من أبيات فها صيغة إسلامية أو حكمية فلا اختلف مع باحث عربى أو مستشرق يرى أنها من زيادات بعض الرواة ، ومن ذلك تلك الشذرات الواردة فى القصائد رقم : ١٥، ١٧ وكذا بعض الأبيات فى القصائد التى أشار إليها (ليال) المشتملة على معانى إسلامية ولكن هذا لا يجعلنا نقابل أغلب الديوان بالشك وعدم القبول .

أما ما يتصل بشعر عبيد فى مظاهر البادية ، فقد لاحظت أنه لم يتناول مظاهر البادية فى قصيدة منفردة ، وإنما يأتى تناوله لتلك المظاهر فى أغلب

---

(١) لسان العرب مادة (ربب) .
(٢) راجع الصفحات : ١١، ٣٠ ، ٣٦ ، ٤٢ .

القصائد ، فقد تبدأ قصيدته بالأطلال ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر الصحراء ومـــا يتصل بها ، ثم يذكر الناقة أو الفرس ، وأحياناً يتناول مظهراً من مظاهر البادية كنزول المطر مثلاً ومقدماته من بروق ورعود ولكن بعد أن يذكر لوم صاحبته له بسبب شربه للخمر ولهوه .

وأحياناً يتناول مظاهر البادية فى معرض فخره بقوته وشجاعته فيـــذكر خبرته الواسعة بالصحراء وفلواتها وجسارة ناقته أو فرسه ، وقد يدفعه هـــذا إلى وصف نبات البادية أو مرتفعاتها أو وديانها .

وهكذا لا تكاد تخلو قصيدة من الديوان من ذكر لمظهـــر أو أكثـــر مـــن مظاهر البادية ، ولكنك لا تجد قصيدة وقفها الشاعر على مظهر أو أكثر مـــن مظاهر البادية .

كما نلاحظ على تناول عبيد للأطلال – كمظهر من مظاهر البادية – أنه لا علاقة بين الأطلال وما بعدها من غرض ، وهذا يجعلنا نرجح أن مقدماتـــه الطللية تقليد فنى دأب عليه عبيد كغيره من الشعراء ، لكن اللافت للنظر فـــى حديثه عن الأطلال أنه يريدها دائماً نابضة بالحياة ، ولو عن طريقة الحلم إن لم يكن فى الواقع ، فهو كلما ذكر الأطلال تعود إلى ذاكرته صورة من صور الحياة فى هذه الدار ، حيث أهلها العامرة بهم ، ويؤثر أن يسميها ديـــاراً لا أطـــلالاً ؛ لأن الدار تطلق على العامرة .

كما نلاحظ فى شعره الذى يتناول فيه الصحراء وما يتصل بهـــا ، أنـــه خبير بطبيعة الصحراء ؛ فلم يترك مشهداً من مشاهدها إلا ألمح إليه ، يصـــور الجبال المرتفعة ، كما يصور الرمال الجرداء ، ويذكر الصـــخور ، كمـــا يـــذكر السهول ، وينتقل بين الفيافى واصفاً بردها القارص ، وحرها الشـــديد ، ذاكـــر

المطر وما يتقدمه من رعود وبروق ، وأثر ذلك علـــى الإنســـان والحيـــوان ، ويكشف فى كل ذلك عن إحساس البدوى العميق بهذه المشاهد .

ولا يفوته فى ذلك أن يلمح إلى شجاعته ويفتخر بقـــوة قلبـــه الـــذى لا يعرف الخوف ، وهو يسلك مسالك الصحراء . ولا ينسى كـــذلك أن ينقـــل لنـــا صوراً رائعة لنباتات الصحراء المختلفة ، ورياحها المتنوعة المختلفة المهاب .

وفى شعره الذى يتناول فيه حيوان البادية الذى تعلق به واعتمد عليـــه كثيراً نجده يركز على ناقته وفرسه ، ويضفى عليهما ما يستحسن البدوى من صفات فيهما ، فيكشف عن مظهر النشاط والقوة وســـرعة الحركـــة ، وشـــكل الحيوان وهيئته ، وربما تعرض لمطعمه ، وعناية عبيد به .

لكن الذى يؤخذ على عبيد فى تناوله لبعض مظاهر البادية أن يقف عن الشبه الحسى فقط دون التعمق فى المظهر وإضفاء الحيوية علـــى التصـــوير ، فالناقة كالحمار الوحشى ، أو كالثور ، ومحبوبته كالمهاة ، أو كـــالغزال ، وإن يكن النقاد القدامى قد أعجبوا إعجاباً شديداً قرب المشبه من المشبه به ، فنحن لا يعجبنا هذا التقارب الشديد بين أطراف الصور؛لأنه يعطل فينا حركة الذهن[١].

ولكن مثل هذا التصوير قليل فى شعر عبيد .

ومما يؤخذ على عبيد – أيضاً – ما يبدو من تناقض فى الأفكار أحياناً ، فهو عندما يصور ناقته نراه – مثلاً – يكشف عن قوتها ونشاطها وأنها لا تكل

---

(١) راجع الأدب الجاهلى قضاياه وأغراضه أعلامه فنونه ص ١٠٣ د/ غازى طليحات ، أ. عرقان الأشقر .

من كثرة الارتحال ، وبينما هى قوية ذات شحم ولحم إذا هى وقد أفنى بهجتها وفضل سنامها من كثرة ارتحاله بها [١].

ومما أخذه النقاد القدامى والمحدثون على شعر عبيد (الاضطراب) وقال ابن سلام عنه : إن (شعره مضطرب) ، وعلل الدكتور / حسين نصار قلة رجوع الأدباء واللغويين إلى شعر عبيد بالاضطراب أيضاً فقال : " وعجيب أن نجد الأقدمين من الأدباء واللغويين يقلون الرجوع إلى شعر عبيد والاستشهاد به فى أبحاثهم ، حتى لا نجد له ما نجد لمعاصريه وزملائه من الجاهليين فيما بين أيدينا من كتبهم . ولعل سبب ذلك الاضطراب الذى ساد كثيراً من شعره ؛ لعدم سيره وفقاً للقواعد الشعرية " [٢].

وقد شرح بعض الدارسين معنى الاضطراب المشار إليه بأن النقاد القدامى والمحدثين لا يعنون باضطراب شعر عبيد خروجه على قواعد اللغة والنحو ، وإنما يعنون نشوز الوزن ، وإن نشوز الوزن لا يتضح إلا فى المعلقة " أقفر من أهله ملحوب " وبعض المقطعات ، أما المقدار الأعظم من شعره فقد أوفى على الغاية فى تنوع الأوزان ، وجمال الإيقاع ، فأنت واجد فى ديوانه عشرة أبحر ، بعضها تام ، وبعضها مجزوء أو مرفل ، ونحن لا نستبعد أن تكون المعلقة سوية الخلق ، وأن الفساد الطارئ عليها شكل من أشكال التصحيف ، وعبث الرواة والنقلة ..... وكثير من العيوب التى لوحظت فى شعره كانت شائعة أيضاً فى شعر غيره .

---

(١) راجع وصف الناقة فى هذا البحث .
(٢) راجع مقدمة الديوان ت / حسين نصار ص ٥.

ويذكر لعبيد تميزه بالأناة وإتقان الصنعة ، وتجويدها والملائمة بين الألفاظ والمعانى ، وتطويع الجرس لخلجات النفس ، وتسخير الموسيقى [١] لخدمة الأفكار ، وحيوية الصور ، والخيال الخصب ، والدقة فى التصوير فى كثير من شعره .

(١) راجع : الأدب الجاهلى قضاياه ،أغراضه ،أعلامه ، فنونه ص ٤٥٣ – ٤٥٤ – بتصرف-.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة التى اشتملت على التأريخ ، والتحليل ، والوصف ، يطيب لى أن أسجل أهم نتائجها فيما يلى :

١ – طابع البادية هو الغالب على حياة العرب الجاهليين ، ومن ثَم فملامح البادية حاضرة فى مادة الشعر الجاهلى .

٢ – عبيد بن الأبرص ارتبط بالبادية ، كغيره من شعراء عصره ؛ على الرغم من أنه تنقل بين الحواضر ؛ فجاء شعره ممثلاً لروح البداوة بكل ما فيها .

٣ – كثير من الأحكام النقدية التى وجهت إلى الشعر الجاهلى ينقصها الاستقراء التام لمادة هذا الشعر ، ولذا فعلى الرغم من كثرة الدراسات التى عنيت بالشعر الجاهلى ما يزال بحاجة إلى دراسات متأنية عميقة لسبر أغواره، ومعرفة أسراره ، وتضييق دائرة البحث بهذه الصورة تجعل الحكم على شعر عبيد فى مظاهر البادية وما له وما عليه أقرب إلى دائرة الصواب .

٤ – النقاد العرب القدامى أقروا لعبيد بن الأبرص بالشاعرية ، وفى مقدمة هؤلاء النقاد ابن سلام الجمحى ، الذى وضع عبيد فى الطبقة الرابعة للشعراء الجاهليين .

٥ – مظاهر البادية بدت حاضرة فى شعر عبيد سواء فى موضوع القصيدة

ومضمونها ، كما تبين ذلك من خلال الفصل الأول من هذا البحث ، أم فى اختياره للألفاظ ، وصوغه للأساليب ، ورسمه للصور من خلال الفصل الثانى .

والله -تعالى -ولى التوفيق ،،،

فهرس المصادر والمراجع

م	المصدر أو المرجع
1	أثر التراث النقدي فى النقد الأدبي فى العصر الحديث –رسالة دكتوراه للباحث /أبو الوفا حمادة عطيفي –مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بأسيوط .
2	أمراء الشعر فى العصر الجاهلى –د /صلاح الدين الهادى -طبع دار الثقافة العربيـــة 1989م .
3	البيئة اليمنية وتأثرها فى الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ص 21-24 –د /زياد محمد جبالي –ط الأولي 1417هـــ1997/م -مكتبة الآداب.
4	تاريخ الأدب العربي)العصر الجاهلي - (دار المعارف بمصر 1961م.
5	تاريخ الأدب العربي –أحمد الزيات –ط الثامنة والعشرون 1978م .
6	تاريخ الأدب العربي الأدب الجاهلي)قضاياه أغراضه أعلامه فنونـــه - (د /غـــازي طليمات ، أ /عرفان الأشقر -دار الرشاد -حمـــص -ســـوريا -ط الأولـــي 1992م.
7	تاريخ الأدب العربى العصر الجاهلى -د /شوقى ضيف – دائرة المعارف .
8	التجديد فى وصف الطبيعة بين أبي تمام والمتنبي -د /نسيمه الغيث -ط الأولي ســـنة 1988م.
9	تطور الصورة فى الشعر الجاهلى -د /خالد الزواوى -ط مؤسسة حورس الدولية -

	نشر دار المعارف 2005م.
10	تطور النقد العربي الحديث فى مصر -محمد دياب .
11	تهذيب اللغة
12	جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي -دار بيروت للطباعة والنشر 1984م.
13	ديوان امرئ القيس – ت / محمد أبو الفضل إبراهيم – طبع دار المعارف .
14	ديوان عبيد بن الأبرص -ت .د /حسين نصار -دار المصرى للطباعة -نشر : مكتبة الثقافة الدينية -القاهرة 2004م
15	ديوان علي بن الجهم -ت /خليل مردم -منشورات دار الآفاق -بيروت 1402هـ 1981 /م .
16	رمز الماء فى الأدب الجاهلى -د /ثناء أنس الوجود -دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع -القاهرة 2000م .
17	شرح القصائد العشر للإمام الخطيب أبى زكريا يحيى بن على التبريزى -ضبطه وشرحه /عبد السلام الحوفى -ط ثانية 1987م -دار الكتب العلمية – بيروت -لبنان .
18	شرح المعلقات السبع الطوال للزوزني -ضبط وتعليق د /عمر فاروق الضباع – طبع دار الأرقم بن أبى الأرقم للطباعة والنشر -بيروت .
19	شعر الطبيعة فى الأدب العربى – د / سيد نوفل -دار المعارف -ط الثانية – سنة1978م.
20	الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى النشأة والتطور -د /

	محمد مصطفى هدارة -دار المعارف .
21	شعر بشر بن أبي خازم الأسدي -رؤية تاريخية وفنية - د / فوزي محمد أمين - ط منشأة المعارف بالإسكندرية 1988م.
22	الشعر والشعراء –ت أحمد محمد شاكر –ط الثالثة .
23	طبقات فحول الشعراء –السفر الأول .
24	طبقات فحول الشعراء السفر الأول –قراه وشرحه /أبو فهر محمود محمد شاكر – الناشر :دار المدني بجدة –مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر.
25	فن الوصف وتطوره فى الشعر العربى -إيليا الحاوى -ط الثانية -دار الكتاب اللبنانى 1987م .
26	قراءة أخرى فى شعر المعلقات بحث للدكتور /عمر عبد الواحد ضمن كتاب :الشعر العربي القديم)دراسته وسبل تذوقه - (د /عمر عبد الواحد -وآخرين –دار الأندلس بحائل –السعودية 1998م.
27	لسان العرب لابن منظور – ط بيروت .
28	مجلة مرافئ –العدد الرابع –شوال 1422هـ –بحث بعنوان :بواعث الشعر فى ضوء رؤية الشعراء والنقاد القدماء – د /حمود الصميلى -إصدارات نادى جازان الأدبى –السعودية .
29	مختار الصحاح للجوهرى .
30	مختارات شعراء العرب لابن الشجري هبة الله بن علي أبو السعادات العلوي

	المعروف بابن الشجري -ت /على محمد البجاوى –دار الجيل –بيروت - لبنان -الطبعة الأولي 1412هـ 1992 /م .
31	المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
32	مقدمة ديوان دريد بن الصمة -د /عمر عبد الرسول -ط دار المعارف 1985م .
33	نظرات فنية فى الأدب الجاهلى -د /فراج جوده فراج -دار الثقافة العربية 1990م .
34	الوساطة بين المتنبي وخصومه –محمد أبو الفضل إبراهيم ، محمد البيجـــاوي –ط –عيسي الحلبي 1966م